مُقْتَطَفات مِن الوَرد

مُقْتَطَفات مِن الوَرد

إبراهيم إدريس

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1434 هـ – 2013 م

ردمك 978-614-01-0854-7

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

فِكرَةٌ هي البذرة..

زَرَعَها طُموح..

في بستان فِكر..

سَمَّدها ليل..

كَبُرت بجُهد..

صيغت بأمل..

نمت في سنين..

قُطِفَت بروح..

جُمِعَت بقلب..

قُدّمَت بعين..

كُتِبَت بقَلم..

قَلَم أمين..

تنويه..

الصفحاتُ التالية..

"59.. 76.. 108.. 122.. 137"

فُقِدَت كَلِماتُها مِنْ بَين المقتطفات..

إذ فارَ حِبرُها من فَرطِ تَدافُعِهِ على الكتابِ رغبةً مِنه بالرَسم،

وسَال دَمعُها من شِدة سَطْوَتِها من مَشاعرِ لهذه الكلمات..

فأبَيتُ أن أترُكَ لكم لوحةً مُلطّخةً بحبرِ تلكَ.. ودُمُوعِها..

... ...

لكن حتماً!

سَيَتِمُّ العثور عليها..

يوماً ما..

..

المحتويات

الإهداء ..		11
الخاتِمة ..		13
المُقَدِمة ..		15
"غُربة"..		19
المُقتَطَفَة الأولى ..	أَجْرام إنسانِية ..	23
يُحكى أن.. "بَسْمَة"..		34
المُقتَطَفَة الثانية ..	أَطلِقها إنها لنْ تَعود ..	35
المُقتَطَفَة الثالثة ..	مُقتَطفات مِن الوَرد ..	47
يُحكى أن.. "عَرَبِيّة"..		63
المُقتَطَفَة الرابعة ..	في لِقَائِه ..	65
المُقتَطَفَة الخامسة ..	أُحِبُكَ رَبّي ..	79
يُحكى أن.. "قُلوبْ"..		87
المُقتَطَفَة السادسة ..	على خِلاف ..	89
المُقتَطَفَة السابعة ..	وأَذّنْ بالحَج ..	101
رسالة إلى الله (الأُسبوع الأول) ..		109
المُقتَطَفَة الثامنة ..	وُلِدَ في قَلبي مَولود ..	113
المُقتَطَفَة التاسعة ..	وُلِدَ في قَلبي مَولود 2 ..	129
رسالة إلى الله (الأُسبوع الثاني) ..		143
المُقتَطَفَة العاشرة ..	سِحرُ الفَجْر ..	147
المُقتَطَفَة الحادية عشرة ..	دعوة على الإفطار ..	159
رسالة إلى الله (الأُسبوع الثالث) ..		173
المُقتَطَفَة الثانية عشرة ..	ما بينَ ربيعٍ وخريف ..	177
اقتطاف الإهداء ..	نُصوص مُشتَرَكة ..	191
رسالة إلى الله (الأُسبوع الرابع) ..		199
النهاية ..		203

الإهداء..

إلى..

محمد بن عبد الله..
صلى الله عليه وسلم..

إلى..

أمي.. أمي.. أمي..

أبـــي..

أخي..

صديقي..

زوجتي..

إلى الجميع..

إلى المجتمع..

إلى الفارس موسى.. من شاركني المقتطفات "بطولتها" .. وما ورائها وما بعدها..

أُهدي الكتاب لهذه الأسماء حسب ترتيب ظهورها في حياتي..

ولا أنسى..
إلى ذاك السلبـــي..

الخاتمة..

تمّ بحمد الله..
مقتطفات من الورد..

نعم لقد تمّ.. كانت أجملَ ساعاتٍ في حياتي تلك الساعات التي جلست فيها أقتطفكم مقتطفةً مقتطفة، قَطفتم مني كلَ فكرٍ وأملٍ وأسلوب حياة، واستعنت عليكم بما قَرَأَت من قَبْلُ عيناي، أودعت فيكم خيالي والخيال، وبَثَثْتُ بينكم أسراري والأسرار، فما كان منها للعامة سيظهر للعيان، وما كان للخاصة سيتضح مع مرور الزمان..

استجديت زيارتكم الواحد تلو الواحد، إثنا عشر إلهام، جمعتكم معاً في بوتقةٍ أحسبها جميلة، تسامرنا معاً فيها كثيراً، تشاركنا الروح طواعيةً فبادلتنا الأدوار ما بين الحبر والدم، وأسكنتنا المنازل ما بين الورق والجسد، أسقيتموني الشجاعة فالبهجة فالطموح، ألبستموني ثوباً طَمُحتُ به منذ فصل، وأجبتم على أسئلةٍ راودتني منذ أمد..

صدقاً، كانت الصدمةُ هي أول شعورٍ انتابني عندما لمست شملهم معاً مشكّلاً بهم باقةً ورديةً أدبيةً كنت أنا فيها المصمم والمنسّق، وستكونون أنتم من يشتمّ شذاها، كتبتها يسراي لتشدوها حناجركم، هذه هي مقتطفاتي الإثنتا عشرة، أستودع القراء إيّاها، كما استودعتني المقتطفات إيّاي..

كنتُ قد عهدتُ المشاركةَ من قَبل بالهواء، بالمأكل وبالمشرب وبمكان المبيت، إلاّ أن المشاركة بالروح أعظمُ وأشد رِفعةً، ففيها تقدّم ما لا يمكنك المُطالبة به إن كان وأقدمت، ولن تنتظر من يَعرض مشاركة ما لديه وإياك، قد تسقيه من قلبك بحبٍ لِكريم، وقد يَرُدُّه في وجهك بخبثٍ لئيم..

وكما للأشهر رباطٌ أسميتموه السنة، لمقتطفاتي رباطٌ اسميته مقتطفات من الورد، لعلّي بكل مقتطفةٍ منها أزرع الحب في قلب إنسانٍ آخر، ولعلّ الآخر بمرور الشهور يقتطفني أنا الإنسان إن أتمها سنةً..

وها قد حان الوداع، وكأننا مجلسٌ عظيمٌ "بالنسبة لي" وانفضَّ، كنت فيه مع اثني عشر مرسال، أرسلها قلبي إلى قلمي، عبروني عُبور رياحٍ على الغدير فهاجت على أثرهم روحي هيجان اللهب في قلب الجحيم، بقي منه المكان وعبرت منه الأرواح وقُتِلَت منه الأزمان..

"وأرجو عافاك الله ألا تتطلع إلى قلمي بنقد أو اعتراض أو تعقيب، بل دعني وما أكتبه كما أكتبه"..

الرافعي..

أما الآن يتبادر لنا سؤالان..
الأول منكم والثاني مني..

الأول: ما هي المقتطفات من الورد؟..
والثاني: ما الذي بعدها؟..

جواب الأول يكمن في هذا الكتاب..
وجواب الثاني يكمن في عقل كاتب هذا الكتاب..

هذا الكتاب..
مقتطفات من الورد..

المقدمة..

بسم الله الرحمن الرحيم..

لم أجد أجملَ من فاتحةِ فاتحةِ الكتابِ لهذا الكتاب..

والحمدُ لله رب العالمين..

ولا عجبَ أنها أولَ ما نطق بها البشر..

يروي الكاتب قصة كتابه قائلاً..

على فكرة (3/1)..

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"..

محمد صلى الله عليه وسلم، رواه البخاري ومسلم..

على فكرة (3/1)..

"مِنْ حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"..

محمد صلى الله عليه وسلم، رواه الترمذي وغيره..

على فكرة (3/3)..

"أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين"..

وأشار للسبابه والوسطى..

محمد صلى الله عليه وسلم، رواه البخاري..

كان إيصالُ تلكَ الثلاث للمجتمع هو جل ما شَغَلَ خاطري وجال بوجداني، فتساءلت: كيف لي أن أجذب القلوب لما حفظته مسبقاً العقول؟

فقلت: أكتبُ عنواناً، وأحاول بجعله جذاباً وأتخذته مثالاً "على فكرة".

ففعلت..

﴿... فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾ **(159)**.. سورة آل عمران..

قلت: ثم ماذا؟

فقلت: أَجعَلُها ثلاثية، لعل التتابعية تفضي إلى الإهتمام من البقية.

ففعلت..

إلا أن طَمَعَ قلبـــي بالفكرة أصدر ثلاثيةً ثانيةً... وثالثةً... ورابعة...

قلت: ثم ماذا؟

فقلت: أكتبُ عنه، هو الفكر والفكرة.. محمد صلى الله عليه وسلم..
ففعلت..
إلا أن طَمَعَ قلبـــي غزاني بحلّةٍ أعتى فأنبت عندي أفكاراً وأفكاراً فأوردتهـــا حصراً بين عقلي وقلبـــي وهذا الكتاب..

﴿... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...﴾ **(17)**.. سورة الأنفال..

أما عن مضمون الكتاب..

"ما أكثر العِبر وأقل الإعتبار"..

الإمام علي كرّم الله وجهه..

و..
أخيراً..

"هل كنت أنا الذي أكتب؟ ألم أكن أنا أيضاً قارئ؟"..

أحلام مستغانمي..

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾ **(105)**.. سورة التوبة..

"غُربَة" ..

تنبتُ عن شوكةِ الغربة أربعةُ فروعٍ ذابلةٍ في الحياة، غربةٌ عن الحجرِ وغربةٌ عن البشرِ، وغربةٌ عن النفس وأخرى عن الله.

ما غربةُ الحَجَرِ إلا انفصالٌ لروحِ بشرٍ عن روحِ وطنٍ فيه العديد من الذكريات، وحرمانٌ جسدٍ عن أجسادِ مكنونات الأوطان، وتركُ حيزٍ من الفراغ في المكان لعله يبثّ لنا مراسيلَ الأشواق لسدِ ظَمأ الحرمان.

أما الغربةُ عن البشر، فهي بناءُ سدٍ عن نَبعِ الأصوات الدافئةِ الساقيةِ للقلب وما فيه من المزروعاتِ من قيم الحب والحياة، وانكفاف العين عمّا أحبت إبصاره قسراً، معوّضةً ذلك باعتصار ما فيها من الخيالات، ساعيةً لرسم صورٍ ثلاثية الأبعاد لعلها تحاكي الحقيقة من القريب من الإنسان.

وأما الغربةُ عنِ الله فهي ضلال، فمن اغترب عن الله فَقَد فَقَدَ أُنسَه، فلا أَنيس له اليومَ عن الله، إذ تراه يسير مُبعْثَراً مع جسده وقلبه وروحه هائمين معاً صَوبَ اللامكان، متلاطمين في دنيا هوجاء، يسيرون على صراطٍ دنيويٍ تتلقفهم خطافاتُ القدر فتؤول بهم على كلاليب فوق النيران.

وأما غربةُ النفسِ فهي غربةٌ جامِعة، تُفَرِّقُ بين الروح ورَوْحها، هي وحدةٌ وعزلة، مَذَلةٌ وحِرمان، ففيها تنقطع عن نفسك بنفسك فتُقَطعُ أوصالها، تتعاطى بها كؤوس الغربةِ الثلاث، فتَعقِرُ حياتكَ وتُنَكِّلُ بما فيها من فُرص الأقدار.

وها هي صورٌ عن بضعٍ من مقتطفاتي تغترب عن روحي غربةً عن الحجر لا غربةً عن النفس، غربةً عن البشر لا غربةً عن الله، نحو مضارب المشاعر وأراضي القلوب، نحو عيون مبصرةٍ وآذان مستمعة، نحو قلوبٍ متعطشةٍ وفكرٍ مُتَّقِدٍ ذو اتساع.

إحدى عشرة مقتطفة حمراء، إذ سَطَت دماؤها على دموعها أثناء ترحالها فأكسبتها الحمرة، وأما الثانيةَ عشرةَ منها فاعتلت دموعها دمائها بتفوق فأسقتها لوناً من البياض، قد كانت هذه البيضاءَ المُقتَطَفَة "في لقائه" صلى الله عليه وسلم.

عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه دعا ربه قائلاً:

"اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي"..

أخرجه الإمام أحمد في مسنده

ما قاله عبدٌ قط إذا أصابه همٌّ وحزن، إلاَّ أذهب الله عز وجل هَمّه وأبدله مكان حزنه فرحاً..

المُقتَطَفَة الأولى ..

أَجْرام إنسانيّة

أَجْرام إنسانيّة ..

استوقفني صديقي ساعي البريد وهو يتأمل لوحةً فنيـــةً في معـــرض بـــلادي الوطني، استغربت تعلّق نظره بها تعلّقَ رضيعٍ صغيرٍ بأمه، تأملت جمال تعلقـــه بهـــا تأمُلَ نحاتٍ موهوبٍ لمنحوتته، كان يتحسس بيده لحيته السوداء القصيرة، أحســـبه فعلٌ يحاكي به تحسس نظره على تلك اللوحة الصغيرة.

صديقي هذا ساحر! ليس كسحرة عهد موسى، ولكن اسمه موسى، ســـحره ليس بيديه بل بكلتا ابتسامتيه.

أولاهما: يصدرها بوجهه وثانيهما يبثها من قلبه، فكيف لا! فالقلب تخصصه وهو طبيبه، فكم من عاشقٍ انتظر مروره إليه، وكم من باب عاشقةٍ انتظـــر دقتـــه عليه!

صديقي هذا بريده ليس ككل البريد، فبريده الحبُ هو له مرسال، وهو بـــين القلوب كثير الترحال، وكأن قلبه بحرٌ والحب فيه أسماكٌ كثيرة، يســـعى جاهـــداً لجمعها في ثنائياتٍ جميلة ويمسح الأحزان عن ما كان منها وحيدة.

لم أصف لكم موسى من قبل، أنه يتبعني طولاً ويماثلني وزناً، إلا أن قلبَه أبركُ وُسعاً، ونظره أحدُّ بُعداً وأذنه أدقُ صَبراً.

كنت سأقول لكم إلاّ أن قلمي أكثرُ قوةً ولكنه هو من يمدني بذخيرة الحـــبر على هيئة رصاصٍ أُفرغه جَشِعَاً في أجساد الكتب، وأغتال بســـواده الصـــحائف البيضاء.

إذاً، كانت تلك السنتيمترات القليلة هي كل ما أتفوق بها عليه، كم أشـــتاق إليه، وكم أشتاق إلى نفسي، وكأنّ بياض بشرته مرآةٌ لبياض قلبه، وكأنّ ســـواد شعره فكرةٌ عن عمق سره، وكأنّ أناقة ثيابه مرآة لأناقة فكره، كان بشعره قليـــلٌ من الشيب تحسبه أزهارَ ياسمينٍ بيضاء في باقةٍ من الزنابق السود.

كان حديث محمدٍ صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" رواه البخاري ومسلم، عنواناً لحياته وأسلوباً لمعيشته، كم نطقها بيده، وكم سعى لها عن طريق قدمه، عاش فيها لعله يبعث معها.

كم أنت جميل يا موسى! كم أنا محظوظ بك يا موسى!

"هناك أشخاص عندما تلتقي بهم تشعر وكأنك التقيت بنفسك" ..

غادة السمان..

بادرني بابتسامةٍ، كانت كانقشاع ستارٍ أسودٍ مخمليّ جميلٍ عن مكنونٍ لؤلؤيّ ثمين، في كل سنٍّ مما لديه قصةٌ من بياض، وفي كل صفٍّ منها روايةٌ لعمار، مع ابتسامته الخلابة يظهر للعيان غمّازةٌ في خده الأيمن، أكنيها بالوادي السعيد، فإن أصابه السَعدُ بانت وظَهَرَت، وإن أقلع عنه سُدّت وذَبُلت، ووالله لكأنها جوهرةٌ في عِقدِ تَبَسّمه.

ذَكّرني بقول محمدٍ صلى الله عليه وسلم: "تبسّمك في وجه أخيك صدقة" صحّحه الألباني، صِدقاً إنها صدقة فلفعلها المبتسم غير مُكَلّف وهو لها غير مُتكَلّف، وإنّي لأراها صدقات، صدقات مُتحدة، ففي كل صدقةٍ صدقتان، والصدقة تتبعها صدقة. صدقتان منك أولاهما لآخرتك وثانيهما لدنياه، ويَردُ عليك بواحدةٍ لآخرته وواحدة لدنياك. هي صدقاتٌ في الدنيا وكم نحن بحاجة إليها، وصدقات في الآخرة وكم نحن بأحوج إليها، أجرك في الدنيا ردٌّ ابتسامةٍ وسلامٌ من الروح، وأجرك في الآخرة حسنةٌ وسلامٌ من رب الروح، فما أدق وأبدع قولك يا حبيبنا حبيبَ الروح.

فرددت عليه بمثلها قائلاً: أسعد الله روحك، وأنار جوارحك، وأراح جسدك، وبارك لك في رزقك، وزاد محبتي في قلبك كما زاد محبتك في قلبي.

" عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق "

تساءلت ونفسي برهةً: كم هو متعلقٌ نظره بها؟ فقررت الإنتقال بنظري منه وصولاً إليها، كان الفضول هو جُلّ ما ملأ خيالي أثناء إسرائي بنظري إليها، ملء

ماءٍ لكأسٍ زاد فأفاض، وفور وصولي أرسيت نظري على إطارها إرساء نَظَرِ المُحَقّقِ على سببِ التعلّق، إرساء نظر الصقر على الفريسة.

عجباً! رغم صِغَرِها، مسكنٌ هي لكل لون، فيها الأبعاد الثلاثة، اختصرت الحجم والمسافة وجمدت الزمن، فيها صورةٌ من صور الإيمان. لقد كانت عبارة "سبحان الله" أول ما نطق بها كل من رآها ساكنة على ذاك الجدار، "سبحان الله" للمرسوم، "سبحان الله" على وهبه القدرة للراسم و"سبحان الله" أن خلق لي عينين تتأملان فيها سحر "سبحان الله".

هي مكتبةٌ في كلمة، مزرعةٌ في ثمرة، عنوانها "لوحةُ الكون"، إنها صورةٌ لمجرةٍ كونية ذات العديد من الأجرام السماوية.

تسمّر قلبي أمام إغرائها، وتساءل ذهني أن كيف استطاع ذاك الرسام أن يضع كوناً في إطارٍ خشبي! وأنا عاجزٌ تمام العجز عن كتابة فكري في كتاب ورقيّ؟ أيكون الفنُّ أقدرَ على الأسر من الكتابة؟ أيكون المزج بين القلم واللون بنتاجٍ حديدي، والفكرةُ الجذابة بقدرة مغناطيسية فينجذب لها القلم واللون فيأسرانها فتلقي بنفسها للتهلكة وتتكلل العملية بإطار خشبي؟ كيف استطاع خلق رابطةٍ بنكهةٍ كنكهة الدم بين هذه الأجرام؟ وأنا أفتقر لربط كلماتي برابطة الأحرف وعلامات الترقيم وعلامات التعجّب والإستفهام؟

ما بين هذه التساؤلات سرقت نَفَسَاً عميقاً وأسدَلت جفنيّ من على عينيّ، سرقت الهواء من حولها بقوّة لعليّ أتشرب الهواء المعطر بجمالها، يا لها من لوحة يا لها من روعة! كنت أتوق أن أكتب عليها من أحرُفي، كنت أريد أن أزرع كلماتي ما بين ألوانها لعلها تنبت أفكاراً أسردها حصراً بين دفتي كتاب.

صحت فيه مسغيثاً أن ما هذا يا موسى! فقال مستغرقاً النظر: هي لوحة لها كل النَظَر، كمال الحُسنِ وجنون الجمال، فنّها فيه إبداع، إبداعها فيه إتقان، إتقانها فيه الحقيقة. قلت له: أنّا للمعرض بها؟ وكيف له بعرض غيرها فهي العرض والمعرض، هي الساحر ونحن المذهول، عجباً للوحة أعتُزِل الرسمُ من بعدها! عجباً للوحةٍ تَنقرض الفنون لأجلها! لعمري هي دواءٌ لكل عليل، هي دعوة للتسبيح لكل قلبٍ ذاكرٍ غطاه الجليد.

عدت أدراجي خائب الرجاء عودةَ صيادٍ أهكه البحر بلا أسماك، عـــودة طفـــل لمقعده من بعد محاولةٍ يائسةٍ منه بالهرب، من أين لي بمالٍ لأبتاعَها؟ لا أملـــك منـــها إلا صورةً لها التقطتها بكلتا عيني، تماماً كما أردت إلقاء القبض عليها بكلتا يديّ، قـــررتُ الغرق في نومٍ عميقٍ سريعاً لعل الصورة في السُبات لا تضمحل، لعل غرقي يبقيني معها للأبد، لعلني أتسامر معها أثناء غفوتي، لعلني أحاكيها بما يجول بخاطري، فما يجول بـــه يرفض الثبوت على الورق، فنمت وإياها ألتحف أنا أغطيتي وتلتحف هي جفوني.

ها قد بدت لي في المنام كما أردت، أقبلت عليّ إقبال لصٍ على مالٍ من بعد اجتيازه للعديد العتيد من الحواجز، نورها الآن أقوى، استلقت علـــى مكتبـــــي استلقاء متمارضةٍ لها رغبةٌ بالتماس الكلامِ مع الطبيب لا بالتماس الدواءِ مع الجسدِ العليل، كانت تداعب قلمي أن يلمسها فأيقظت قواي واجترأت عليها إجتراء أسدٍ على ظَبيٍ هزيل، فجلست على كرسيي الخشبـــي جلوس من أُعد له طعامٌ ليلتهمه، فلمستها بقلمي لمسة الموقظِ مضطرباً، فإذا بها تضطرب اضطراب الماء بهبوط قطرةٍ من السماء عليه.

وإذا بكواكبها تطوف وأقمارها تدور، طواف كواكبها به عبادة، فكله نسقٌ عنوانه الهدوء، ودوران أقمارها به مداعبة أحسبه دورانَ من يتلاعب أو من لا علم له بكيْف له أن يطوف.

أما نجمها فهو ثابتٌ في موقعه كوتدٍ في الأرض قد غُرس، أراه المسؤول عـــن الواقع وما سيتم، تساءل قلمي من يكون هذا النجم؟ أيكون ملكَ غابة الفضـــاء؟ لا، لا أعتقد، فالملكُ في أرضنا يكون وحيداً ومن حوله العديد من المصفقين ولكن نجمنا هذا ليس بوحيد، فحوله الأجرام كالأجساد الطائعة، محبةٍ وراضـــية، رأيتـــه أكبرهم، جسدٌ ضخمٌ فيه غلیانٌ تخاله الطوفان، كأنه أبٌ صارمٌ وزوجته تموج فيـــه موجاً مكونين مع بعضهما صلباً وسائلاً، نوراً وناراً، وكواكبها أبنائهم يطوفـــون من حولهم حباً وشكراً، اعتزازاً وامتنانا.

كأن طوافهم حول النجم افتخاراً به ودورانهم حول أنفسهم اعتزازاً لها، فلا ينتقص طوافهم من دورانهم من شيئ، قد علموا أن للكبير احترامـــه ولأنفســـهم احترامها، عسى أن ينـــزل هذا الدرس للأرض عن طريق الشهب أو أن يركـــب أمواج نورٍ من بحر الكون فيرسو على شُطْان الأرض.

ورأيت النيازك في فضائها تحوم كما تحوم الطيور على رزق لها في الأرض قد وجد، وإذا بإحداها تنغرس بكوكبٍ انغراسةَ بذرةٍ في ترابٍ أرضيّ، أيكون الصدام هذا هو الحب؟ أتكون إحدى النيازك هذه هي الحبيبة؟ أيكون الكوكب الطوّاف هو الحبيب؟ أيكون القمر الصغير المتلاعب ابناً لهما؟

كم عظيمٌ انغراس الفتاة في قلب الرجل! كم تبذل هي في انغراسها من طاقة القلبِ؟ وكم يبذل هو من حبٍ في سبيل إطباقه عليها؟ كم تحترق شوقاً للوصول إليه! وكم يحتمل من وحدةٍ في انتظارها! كم هو ثمينٌ ما يثمرانه من حبٍ وحنانٍ وولد؟ كم هو جميلٌ ما يَنبت منهما من شجرة الحب قطافها في الفضاء لكل روحٍ هائمةٍ باحثةٍ عن روح.

في الكون العديد من المجرات، ولكل منها أجرامها، ولكل جُرمٍ منهم فلكه، أفلاك هنا وأخرى هناك منها ما تداخل ومنها ما تقاطع، منها ما كان له من لقاء ومنها ما مات قبل أن يحين له موعد اللقاء، وكأن التداخل هذا توقيتٌ لحياة مشتركة له بداية وله نهاية. إنها الصحبة، وإنها لمقدرةٌ من الله، وحده الله الذي اختار الزمان وأوضع له المكان وجذب له هذه الأجرام، أتكون رِفقة الأجرام لبعضها كرفقتنا نحن لبعضنا؟

في أرضنا ما الصداقة إلا أن تحوم في عقل صديقك بحثاً عن حلم تساعده فيتحقق، أو أن تغوص في قلبه بحثاً عن جُرح تطببه فيتضمد، أن تقتنص في نفسه طلباً تقدمه فيلبى، أو أن تبحث في يده عن عملٍ تنجزه فيُنجز. إنها مؤقتة، فلم نبذل فيها من الجدال؟ لم نضيّع من وقتها في الخصام؟ أليس الحبُ حجر أساس الصداقة؟ أليس الخيرُ قاعدةُ العلاقات ما بين الأصدقاء؟

"ولا يكن لكم في الصداقة من غاية ترجونها غير أن تزيدوا في عمق أنفسكم، لأن المحبة، التي لا رجاء لها سوى كشف الغطاء عن أسرارها ليست محبة، بل هي شبكة تلقى في بحر الحياة ولا تمسك غير النافع"..

جبران خليل جبران ..

وجود التوقيت مدعاةٌ لرفع راية الوئام، فلا جدال ولا خصام في الصـــداقة، الصداقةُ روح الحياة، انقطاعها غربةٌ وموتها موتٌ للرغبات، نقصانها كآبة وزيادات في الآهات والحسرات.

ومن الأفلاك ما يتقاطع مشكّلاً صداماً، كأنه صدامُ رجلـــين علـــى الأرض عراكهما فكري أو/و جسديّ، فإما أن ينتج عنهما ارتدادٌ كارتداد كرةٍ منحرفـــة الفكر عن عارضةٍ صلبة المراس، أو أن ينتج عنه ابتلاع أحدهما للآخر ابتلاع حوتٍ لما مر من باب فِيه مرور المشاة، أو أن يكون انفجاراً تتطاير منه أشلاء الكلام مـــع ما تبقى من أشلاء الكبرياء؟

"الإختلاف في الرأي ينبغي ألا يؤدي إلى العداء، وإلا لكنت أنا وزوجتي من ألد الأعداء"..

غاندي ..

أيكون أصلُ الصدام الكِبر أم العِناد؟ وكلاهما سبيلٌ من سبل الكفر، فلكل منا مَنطِقُهُ الخاص، ولكن هل وجب علينا التغيير؟ ألسنا أقرب ما نكون للكمال؟

يا للحماقة، ألن نعلم أن للمنطق منطقان؟ واحد عنده وواحد عندك!

التغيير إيمانٌ بالحقيقة وليس كفراً بالذات، والجدال معركة كلها كـــرٌ وفـــر، معركةٌ تبدأ تدور وتدور لتدوم، وككل المعارك ستنتهي وككل الحقائق ستنكشف، وبالتكشف هذا نستكشف جهلنا وعجزنا ومدى غفلتنا، فلكل معركة هناك فـــائزٌ وآخر خاسر، فلا أظنهما يقولان من بعد الصدام، إلا أن الصدام مضيعةٌ للجهـــد وإرهاقٌ للزمن وإجهادٌ للقلب.

قالوا ســـكت وقـــد خوصـــمت قلـــت لهـــم

إن الجـــــوابَ لبـــــابِ الشـــــر مفتـــــاح

والصـــمتُ عـــن جاهـــلٍ أو أحمـــقٍ شـــرفٌ

وفيـــه أيضـــا لصـــونُ العـــرضِ إصـــلاح

أمـــا تـــرى الأســـد تُخشـــى وهـــي صـــامتة

والكلـــب يخشـــى لعمـــري وهـــو نبّـــاح

الشافعي ..

كأن في اللوحة بريداً يقول لنا: إن الأجرام السماوية كالأجســـاد الإنســـانية كثيرةٌ في العدد وعديدة بالشكل، متباعدةٌ في حين ومتقاربةٌ في آخر.

ما الفرق بين الجرم والآخر إلا بمدى ظلامه أو نوره أو ما يعكسه من نـــور، وما الفرق بين بشرٍ وآخر إلا عدلٌ أو جورٌ أو حياد، حبٌ أو كرهٌ أو نفـــاق، ولا يبقى من النجم إلا نورٌ يسبح في الفضاء، ولا يبقى من الإنسان إلا ذكرى يُســـرى بها بين العباد.

سمعت دقةً على الباب، تلك هي النغمة الموسيقية التي يبثها موسى من قلبه عن طريق عراك يده مع بابـــي الخشبـــي، قلت مازحاً: من أنت يا هذا؟

قال غاضباً من مزاحي: صديقك الساعي.

قلت: تفضل أوَ معك لي أي بريد؟

فتح الباب كأسدٍ تكشفت أنيابه لافتراس طريدته، انطلق نحوي انطلاقةَ مـــن يسعى لحفظ ابنٍ له من محاولةٍ جَديّة للانتحار، ألقى عني غطائي ورشـــق وجهـــي بكوب ماء.

قلت: ما بالك أيها الساعي؟

إلى ما ترمي أن تقول؟ بعينيك خبرٌ كالطير، وأراك رميته بسهم فقتلته وابتلعته والخبر وحدك.

فمد يده لي مصافحاً، فرددت عليه بمثلها، فالتقى الكفان بمصافحةٍ وكأنهمـــا جيشان التحما في أرض معركةٍ ذات وغى، صافحني بيده مصافحةً شديدةً ساخنة، ما مصافحته إلا صفعةً للقلب "أن قُم" فأطلق ما يكفي من مشاعر حبٍ وامتنـــانٍ لهذا المَلَك.

وكأن التقاء الكفين كان بقصد الإمساك بقلب الآخر، استمعت لدقات قلبه في يده واستشعرت دفء عاطفته من بين أصابعه، لا عجب أن الذنوب تتساقط من بين يدي المتصافحين، وكأن اهتزاز الكفين محاكاةً لاهتزاز اللسان بشكر الله تعالى على تداخل مسار المُصافح مع مسار الآخر، وأن التقيا.

كم جميلٌ أن تلتقي اليد التي بها أُخطئ وبها يُصوب، التي بها أُحاول وبها يُساند، التي بها أنجح وبها يُصفق والتي بها أمسك وإياها بالجنة لعلي أُلصَق.

"المصافحة تزيد المودة" ..

الحسن البصري ..

قال ضاحكاً مستبشراً: مباركٌ لك، لقد بيعت لوحتك بأعلى مزادٍ علني في المعرض، وأتبع الخَبَر بحضنٍ كحضن الأم للجنين برحمها، اعتصرني بذراعيه اعتصار الظمآن لكوب ماءٍ ورقي فارغ، كانت الصدمة هي أول ما انتابني من مشاعر من حرارة الخبر، فاشتعلت دموعي فرحاً والتهب قلبي فخراً، أُتبعت صدمتي بحيرةٍ أن كيف للرسام أن ينسى ما قد رسم؟ كيف للرسام أن يفرح برسمته فرحة أمٍ بعودة ابنها سالماً من الحرب؟ أنا ذاك الرسام، ألست أنا ذاك الكاتب؟ ألم يكن ما يجول بخاطري أحرفاً مُنَقَطةً لا خطوطاً مُعوَجّة؟

الشكر لله، الفضل كله لله، تذكرت قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ (7)، تساءل قلمي أليس الشُكر بفعلٍ يأتي كجواب على النعَم؟ ولكني أراه الآن "ارتشفَ" فعلٌ يأتي للإقبال على السقاء، وكأننا نرتشف من كأسٍ رشفات، ففي كل رشفةٍ شكر ولكل شكرٍ مزيد، إنه كأسٌ لا يبلى، إنه كأسٌ لا يفنى، كأسٌ مِلئُه رشفات.

وكأننا دخلنا في طريق اللاعودة، فالشاربُ يستلذ بالشكرِ والله يعد بالمزيد، المشروب هنا مختلف فهو بنكهةٍ كلها حلاوة وهو بصبغة ملئها النور، الشكر هنا شكران واحد على ما مضى من النعَم وواحد على القادم لامحالة، الحمد لله.

الآن تذكرت سبب تبسّمه أمامها، أنا ذاك الرسام، وغرفته كانت هي المعرض، فكم من لوحةٍ زَيّنَ بها جدرانها! كانت معرضاً لفنونٍ أحبها ولفكر

اعتنقه، وأما فكرة وصفها بالوطنية فهي عائدةٌ على كمٍّ الأعلام الموزعة في أرجائها معلنةً حبه للأوطان واعتزازه بها، أما جائزة المزاد فعلمت بعد حين أنها دعوةٌ على الإفطار.

أيكون الرسمُ مفتاح الكتابة؟ أتكون الكتابةُ أَيهَمَ الفن؟

لعل خطوط الرسم حبالٌ ينشر عليها الكاتب ما جمَّل من حروفه، لعله يستخدم من الألوان ما يصبغ كلماته بها وكيف لنا أن ننطقها إرضاءاً لقلمه وأحْبَاره.

ما الكتابة إلا مكالمةً فكريةً عبر هاتفٍ ورقيّ، رُفعت سماعته باقتناءَ لكتاب، وإغلاقه بنهاية هذا الكتاب، وعلى متلقيها جهدٌ بالقراءةِ، جُهدِ مُتفحصٍ سائر، لا جهد مسرع جاري.

فإن تلقّيتها هكذا فأنت بها قارئٌ يتكاثر عقله، ويتناقص جهله. وكأنك بالقراءة تفتح الأراضي وتبني القصور، تصحب الأهل وتنتقي الأصحاب.

ولا يكن غرضك منها نقل فكرة أو تحريف فحواها، فإنك إن تنقلها بلا تمحيص، أو إن تحرفها بلا تفكير، ستسلب القراءة غرضها وستسلب نفسك روحها، فلن تغدو ذاك الرجل المثقف، بل ذاك الكائن المرفه، وترفيهك هذا باعتقادك الساذج بحملك المغزى لا بفهمك المحتوى، وإنك بواقعك هذا إن فعلت ستُرينا فيك قوله تعالى في سورة الجمعة **﴿... كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا...﴾** (5)، فأنت بهذا كائنٌ لا تفهم الفحوى، تفهم الوزن من الكتاب لا المغزى، فالكتاب مع الكتاب عندك همٌ وعليك حمله، وهو لغيرك كنزٌ لكنزٍ وعليه فهمه.

كم أطلقتي يا لوحتي الصغيرة من سهام كلماتٍ على أسطرٍ من الورق! كم أصبتِ من أفكاري فأرديتيها هامدةً على صحفٍ مفترسةٍ بيضاء متعطشة! أوثقتي عليها في كفّتي كتاب؛ معلنةً عنواناً اسمه أجرام إنسانية.

يُحكـــــــــى أن ..

"بَسمَة" ..

يُحكى أنّ حرباً نشبت بين اثنين من أعتى المحاربين، يتشـــاركان بســـكنهما الأبدي في مرايا الوجوهِ العاكسةِ ما في القلوبِ من أحاسيس ومَشـــاعر، وبـــروز أحدهما يتضمن إلقاءِ الآخر في غياهب الكتمان، كُلفة ظُهورهما واحدة والقـــدرةُ على استدعائهما مُتكافئة، وترى البشرية تتنازع في ضم أحدهما لصفوفها.

أمّا الأول فاسمه التبسّم، رغم قلة نفوذه على هذه الغبراء، إلاّ أنّـــه يســـتتر في قلوب الجميع، يَسود شريحةَ الطفولة ويحظى بشعبيةٍ عاليةٍ بـــين قلـــوب الراضـــين المتراضين، ذو وجه حِسنٍ مُنارٍ من رضا الرحمن. والثاني اسمه العبوس، وهو شـــديد النفوذ والشهرة، إذ يسيطِرٌ على معظم الحشود، تراه ينتشر كالطاعون خصوصاً بين المتباغضين، ذو طلةٍ قبيحة مكسوةٍ بنفحةٍ شيطانية مقيتة.

قد كان وبرز تحدٍ بينهما، وجموعهما كجمهورٍ حاضرين، وبدأ القتال، قتالٌ أسطوريٌّ عظيم، إذ ألقى العبوس متجهماً رماح الغضَبِ، فإذا بالتبسّـــم يتلقفهـــا بدروعٍ من الأسنان البيض، ورَدَّ التبسّم بسيف الأملِ متفائلاً، فحطمته حدة عبوس الحاجبين المتنافِرَين، هاجم العبوس بتدويراتٍ من العيون الحانقة، فطوقها التبسُّـــم بتدويراتٍ من العيون الباسمة فحولها كسحرٍ لفراشات سعادةٍ تحوم حول الوجـــوه الحاضرة.

وبعد سجال طويل كانت القوة بيد العبوس فتمكن من التبسّم ودنا منه رويداً رويدا ليقتله، فقال له: ماذا تقول في نهايتك البائسة بين جمهورك البسيط الســـاذج السعيد؟

فقال التبسّم متبسماً بلا صوت: بَسْـــــــــــــــــــــــــــــــمَة.

فتجلى نورها فَورَ نُطقِهِ لها على الأفق، وأسقطت العبوس في أسرها، فالبسمةُ وميضُ فَرحٍ يطغى على الكون، وكأنها شمسٌ مع القمر قد اتحدت، وكأنهـــا ولادةٌ من وجوه قد احتضرت، وكأنها كنوزٌ من أرضٍ قد افتقرت.

وأتبع التبسّم قائلاً: أنا عبادة أيتها الغواية، وتركه في حسرته يعمه ..

وما زال هناك وجمهوره يعمهون ..

إلى الآن ما زالوا يعمهون ..

المُقتَطَفَة الثانية ..

أَطلِقها إنّها لن تَعود

أَطلِقها إنها لن تَعود ..

عُدتُّ من عملي أخيراً، وكم كان طويلاً هذا اليوم! إذ خَرجتُ وإشراقة الشمس وها أنا وإياها نغيب، هي تغيب خلف الأراضي، وأنا أغيب في غَياهب السرير، إلاّ أن رحلتها كانت بأفاقٍ واسعة، ورحلتي كانت بمساراتٍ ثابتة، فهممتُ ونفسي فألقيت بجسدي على أريكتي المفضلة كغطاءٍ على جَسَدِ السرير.

وجدت بطاقةً مثنيةً على الطاولة الزجاجية في غرفة الجلوس مكتوبٌ عليها:

"أعذرني يا صديقي سأتأخر قليلاً، انتظرني سأعود بعدَ العِشاء لأتناول وإياك طعام العَشاء"..

موسى..

كم هو جميلٌ استخدام الأساليب القديمة في الإخبار عنا، عن ماضينا وعن مستقبلنا، ففي الرسالة الورقية رائحةُ جَسَد، على عكس ما في الرقمية من رائحة حَدَاثَة، في الورقية جهدُ مرسلٍ إذ أنه قام وتحرك وأحضر وأرسل، إنها احتفال كونيٌ صغير بإرسال بريد ورقيّ بسيط، ولعلّ أجمل ما في البريد تلك الفترة التي يَعلَقُ بها في السماء ما بين مُرسِلٍ ومُرسَلٍ إليه، فهنا تفتك نكهة الزمن في البريد، فتزيده من نار الشوق المشتعلة أصلاً، وتسقيه المزيد من الغموض، فنمسكه بكلتا يدينا نستنشق عطره وعبير حبره، وهو أيضا قابلٌ للتخزين الأبدي في صناديق الذكريات، أما الرقمية؛ فهي أن تدوس بإصبع واحد على بضعٍ من المواضع، على ظهر سطحٍ جامدٍ ميتٍ صغير، وبالقليل من الدوس نلغيها ونلغي مرسلها، مُرسل هذا البريد.

كم أكره الهاتف الذي قتل الفضول بسكين الأزرار، وسلب الأوقات من الجموع بالحجة المعتادة "دقيقة وإليكم سأعود"..

وكأنه يقول لي ببطاقته: أن لا تهاتفني اليوم فعندي ما هو جديد، سأنتظرك يا موسى قد اعتدت أن يكون بجعبتك الكثير، واعتدت قولك بأن لديك المزيد.

تأملت اسمه الواقع أسفل البطاقة "موسى"، كم هو جميلٌ هذا الإسم كأني لم أره منذ أمدٍ بعيد، اجتاحتني رغبةٌ لاستخراج معناه اجتياح النار للهشيم، فهجمت نحو المعجم هجوم مقاتل باسلٍ نحو هدف عنيد، فقرأت فيه:

(موسى عليه السلام – كليم الله) ..

" سمّي موسى عليه السلام بهذا الإسم، لأن أصله في السريانية "موشا" فـ "مو" هو الماء، و"شا" هو الشجر، وكان قد وجد بين الماء والشجر فسمته بهذا الإسم آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ".

إذن..

وجد بين الماء والشجر!!

وأقول:

وإني أجده بين السماء والأرض حلقة وصل..

وبين الحق والباطل حلقة فراق..

وبين الله والبشر حلقة نبوّة..

وبين البشر والبشر حلقة كمال..

وبين البشر والشيطان حلقة حرب..

هو الجمع بين الدين والدنيا..

وهو الفرق بين الإنسان والإنسان..

وهو الطرح للدنيا من النفس..

وهو القسمة للحقوق بين البشر..

كله سحر يطلق حياة ملئها الأمل..

موسى عليه السلام..

فجأةً دبَّ صوتٌ مدوٍ من طرق أحدهم على الباب، كقرع طبـــول حـــربٍ جاءت بنفير، قطعني عن عالمي كما تقطع السكينُ جسد الرغيف، قطعـــاً لـــيس موسى، فموسيقى موسى للحب تغنّي لا للحرب تصيح، قمت مسرعاً كعدّاءٍ أقبل شفير المضمار، فتحت الباب ووقفت خلف مصراعيه متوجساً، وإذا برجلٍ عجوزٍ يرتدي السواد ثوباً وكأنه حدادٌ على موت هدفِ حياته، والذي أخاله قد مـــات منذ أمد بعيد، كان معطفه سميكاً طويلاً جميلاً، أزراره كبيرة، يلفه حزام جلـــدي عريض، كان حذاؤه جديداً متسخاً، أراه مقتدراً مالياً أصابه الملل من عدّاد السنين، أظنه ثمانينيّاً بقلبٍ عاش بعد المئوية بقليل، كم هي عميقةٌ تجاعيد وجهـــه، وكـــأن السنين جمعت تواقيعها عليه، كان الشيبُ برأسه كفروٍ أسودٍ غطاه الثلج من زمـــنٍ طويل.

قال: أأنت الساعي؟

قلت: لا، بل صديقه.

قال: متى تراه يعود؟

قلت: لعمري لست أدري.

قال: هل لك أن تكتب لي وتسلّم له بريد؟

قلت: طبعاً.

قال أكتب: أُمّك تريد منك لقاءاً لا كلقائكما الأول، ولكن كلقائكما مـــا قبل الأخير.

ثم أعطاني العنوان وظرفاً قديماً، وطلب مني أن أضعه والبريد وهمّ بالرحيل.

كان له رغبةً بالبقاء إلا أنه آثر عليها الرحيل ...

سألته بالفضول مستدركاً رحيله: لقاءٌ أول؟

التفت لي والكلام يفور في فمه فورانَ من ينتظر صفارة النفير، نعـــم! كـــان اللقاء الأول هناك "فيها" في أحشائها، كم هو صغيرٌ هذا الكون أمام رحابة رحمها، ففيه تم الإيجاد، وفيه تم نفخ الروح، هو (رحمها) في لقائهما الأول كان لذاك الجنين أرضاً وسماءا، أرضٌ له منها المُنطلق، وسماءٌ كان هو نجمها المنتظر، مـــن عَبـــأ بهـــا آنذاك؟ من لم ينتظر بزوغه؟ ما فصلهما ذاك الوقت إلا بضعٌ من جسدها، كانـــت ترى في رحمها الحافظ له من كل مكروه وكان يراه هو المانع عنه الضوء.

وبعد حين من ذاك الزمن وقعت جريمة، كانوا يكنوها بعملية الولادة، هي بكت ألماً وبكى هو شغفاً، وسَرق مكوّنات جسدها وسُرِقت هي، أنَسِي أن الحب حُبِكَ هناك؟ أنه اُمتزج بمكوّنات تكوينه؟ أنه أختزن بجسده البضعَ من جسدها؟ فقد طاف فيه وأكل منه وخرج به، أكل كُلَ ما هو مورود له منها من مادة ملموسة أو من مشاعر مكنونة.

كان يسمع نبضات قلبها، وكانت تستشعر ركلات أطرافه، طموحها نظرة تستقرأها بركلة، وطموحه الخروج وترك فكرة الكائن الملصوق، حبها له حنان، وحبه لها مصالح، ناداها ببكاء ونادته بابتسام، حمّلها العناء وحمّلته العطاء، لقاء الأم لقاءٌ يراه هو واقع، وتراه هي حلم، تقرأه هي واجب ويقرأه هو "بعد حين" تضحية.

قلت والدهشة تملأ قلبي كالنيل حينما يحين وقته ليفيض: "ولقاءٌ قبل الأخير!" كيف لأحدٍ أن يعرف خبرَ اللقاء بأنه من النوع الأخير؟ أليس الخبر هذا عاجل مفاجئ؟

قال: بلى، الخبر العاجل الحقيقي هو وفاة إنسان، فتكون الحلقة قد انتهت والمتابعة للميت إجبارية ونتيجته له في طريقها للظهور، فلا طريق للإعادة، ودون ذلك من أخبار، هي أخبار كسائرها من الأخبار، لك الحق في رؤيتها أو تفسيرها أو حتى تجاهلها.

سألته مستغرباً استغراب بريء على كاهله ألفُ ألفُ دليل: وأنت ألا تريد منه أي لقاء؟

قال: لا، فلقد التقينا قديماً هنا (وأشار إلى جيبه) وأتبع قائلاً: حين التقت مطامعه في يدي، فمطامعه تساءلت: أين نصيبي؟ ويدي تساءلت: هل تكفي؟

وبدأت المحادثة بأنه يرغب وأنه يريد، وكنت أردّ: هذا لك وهذا ما تريد، يبني الأب بجهدٍ درباً يراه للهداية ويراه الإبن للسيطرة، فإن قصَّر الأب بطلبات ابنه قرأها الإبن تقصيراً وقرأها الأب عذاباً للضمير. لقاءُ الأب لقاءٌ يراه الإبن عملاً، ويراه الأب رسالةً، يقرأه الأب واجباً ويقرأه هو "بعد حين" تضحيةً.

قاطعته قائلاً: ألن تلومهُ إذن؟

قال: كلا، إني لن ألومه. يا بني إن عقوق الوالدين وريثٌ لإحدى ثلاث سلالاتٍ حاكمةٍ في القدر: أولاها عقوقي لمن هو والدي، والثانيها تقصيري بتربية ما كان لي من ولدي، وثالثها ابتلاءٌ من ربي، ربُّ والدي وربُّ ولدي.

يا بني: ها أنت ترى إن ثلثي أسباب العقوق قد تخلق بيديّ، وأما الثلث الأخير فمن الله هديةٌ لآخرتي. لن ألومه فقد أحببته، هو مني وأنا له سائراً إليه، وأما الرسالة هذه فهي من أمه، فما زالت تطالب بثمن ذلك الحليب.

سألته: كيف وصل الحال إلى هنا؟

قال: يا بنيّ يبدأ العقوق مع الإنسان في الصغر عندما يعلّمه والداه كلمة لا. عندما يدرجونها في لغة تخاطبهم الرسمية، في غرف نومهم وعلى موائد طعامهم، عندما صفّقا له عندما نطقها لأول مرة، عندما أخبراه أنها صورة للكَبَر، وأنها مكمن الرجولة.

سألته: لم أصابه الآن، وهل له علاقة بالغضب؟

قال: يا بني، العقوق لا يولد فجأة بل يتربى وإيانا والسنين، إلا أن قراءته تتضح بعد حين، عقوق الطفل يُبَرَّر بطفولته بكل سعادة، وعقوق المراهق يُبَرَّر بمراهقته بكل فخر، إلا أن الرجل لا يُبَرّر للآخر عقوقه لأنانيته.

غضبُ الوالدين ينجم عن انفجار حدث عاق، هو بالنسبة للعاق حدثٌ معتادٌ طبيعيّ وبالنسبة للوالدين القشة التي قسمت ظهر صَبرهم، فيُحَمِّلونه العقوق كله من مراحل الصغر لمراحل الكبر، فينجم بهذه الخلطة الغضب.

سألته والدمع بعينيّ يستتر بحزنٍ وراء ستار الخجل، أيمكنني فتح الظرف؟ فالفضول يجرى بدمي كالسم عندما يجري في الوريد.

قال: افتحه، فلا مكانَ للسرّ عندي.

فتحته؛ وإذا هو بطاقة دعوة لحفل زفاف هذا الثمانيني منذ ما يقارب الخمسين سنة، كان كل ما تبقى مما خُطّ عليها الآيةُ الكريمة قوله تعالى في سورة الروم **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (21)، وقليلٌ من التفاصيل.

تتجلى هنا آيةٌ من آيات الرحمن، وكأن الآية هذه معادلةٌ للتفاعل، التفاعلُ هنا تفاعلٌ روحيٌ جسديّ، فهو طريق جزئين للوحدة في مركّب واحد بدايةً، يَسكُبون

بَعضهم ببعضٍ تباعاً، يَمزِجون أنفسهم بأنفسهم ليسكنوا فيها، السكن هنا سكون، فهو تطويق الأنا لما فيها، هو استقرار النفس بنفسها، ينصهرون فيتصاهرون، سكونهم هذا استقرارٌ مطامعهُ أبدية، وإن كانت بدايته بدايةً لفظية، المادة هنا أنا وجزءٌ من الأنا، ويراها الأخر أنا وجزءٌ من الأنا الآخر.

وتُغدَق الروابِط من بعد السَكَن، الروابط هنا هدايا روحانية، مودةٌ تتلوها رحمة، فالأولى تعطي الخليط القدرة على التعايش، والثانية تفقده القدرة عن الإنفصال، إن فيها لآيةً لقوم يتفكرون، فالله خالقها ومنتقي أقطابها وهو المُتمم لأمرها، فسبحانه.

وكأنه يدعوه للماضي حيث لم يكن بجسده، بل كان بطموح أبيه وحلم أمه، فبكليهما عاش سنين مديدة تكاد تكون أكثر من سنين عمره في الحقيقة، بل هي أكثر بكثير.

يولد نصف الإنسان يوم زفاف جده وجدته، فتقول الجدة للجد أترى أن يكون لنا حفيد؟

فيرد الجد: أرى أن يكون لنا وليد، ومن ثم لكل حادثٍ حديث. كالعادة تتفوق النساء على الرجال بالمقدرة على الحلم فحلمهنّ يبدأ حيث نهاية حدود أحلام الرجال، إنهنّ بقدرات خيالية وإنهم بقدرات واقعية. وأما نصفه الآخر فيولد يوم زفاف جديه الآخرين. ويكبر الحلم مع الجديّن إلا أنه يترسخ بولادة الأبوين، لقد عاش الحفيد طويلاً إلا أن النسيان كفيلٌ بقلب كل شيء.

قال: يا بني إن كانت لك مشاعر أطلقها كالسهم فإنها إليك لن تعود، فأصل الأبوةِ مهنةٌ وعليك امتهانها، والصداقة مهمةٌ وعليك آداؤها، والحبُ أسلوب حياةٍ وعليك أن تتعايش به.

ما بين هذه الهيئات الثلاث تتصور المشاعر وتتشكل في حياتنا، فإن أردت أن تعيشها بطريقة مثلى أطلقها فإنها لن تعود، فالمشاعر كما الإيمان على وجهتها أن تكون لله وحده، مشاركة الأهداف مع الله رياء، وكذلك المشاعر إن قصدت فيها أجراً من غيرك فقدت متعتها كما يفقد المرائي أجر إيمانه، بل وأكسبتها ألماً يفوق حد فقدانها بل ويفوقه بكثير.

يا بني عندما تعلن نفسك حبيباً، كن على ثقة أن الحب ليس مرآة تعكس لك ما أطلقت، اجعل حبّك كالنور لا راد له من الفضاء.

عندما تُعلن نفسك أباً، كن على ثقة أن الأبوة كالشلال، ماؤه يسقط ولا يعود، ولا تغترّ بقطرات الماء الصاعدة من مصب الشلال، فلولا صدامها بالصخر لما ارتدّت، وحتى هذه القطرات ستراها للمصبّ تعود.

عندما تعلن نفسك صديقاً، كن على ثقة أن الصداقة تعمل كعمل صديقك الساعي، ما الصديق إلا رسائل للآخر، وما للساعي لنفسه أي بريد.

قلت له: يا عم في جعبتك العظيم من الحديث، أيعقل أنك لا تجيد الكتابة؟ أم أنك إليه لا تطيق؟

قال: بل أنا من علمته إياها حين كان هو من لا يريد.

قلت: فلم لم تكتب رسالة زوجتك بيدك؟

قال: إن كتبتها بيدي سأكتب من قلبي ما يستجدي عاطفته بفكري، إلا أنّ نفسي تعز عليها نفسها، وهو لن يقرأها بقلبه، وأنا أيضاً لا أطيق أن أدفن كلامي وزوجتي في أوراق، هذا الكلام لصديقك الساعي لعله ينشره هنا وهناك، فهناك من منه سيستفيد.

قلت: لم لا تهاتفه؟

قال: في المكالمة دموعٌ من أمه، واستفاضةُ كلامٍ من قعر قلبي العميق.

تذكرت قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿... **فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا**﴾ (23) صدق الله العظيم.

وكأن رَحِمها لك مِنبر، فالأم تخاطبُ من ورائهِ الكونَ، تلفظُك له بكل سخاء منها، معتدةٌ مِلؤها العزة، تلفظك فخراً، ترتقي بك لمنابر الكون جاهدةً، تضعكَ عليه لتكمل طريقك وحدَكَ برفقة قلبها تحت مظلةٍ من عينيها.

وإنك بها تعتلي المنابر وتقذف منه الـ "أفّ" جزاءً لها، أتستحق الـ "أفٌّ" الخارجة منك عندما غضبتَ سخطاً عليها، أن تكون جزاءً للآه الخارجة منها عندما لفظتك جزءاً منها؟ وإن كانت كلمة بحرفين فهي سيفٌ بشعبتين، اللفظةُ هنا أداة للجرح، وكيف وإن كان النَهرُ مسرحاً لها؟

النَهرُ هنا إزهاقٌ للروح، إنك بالأُفّ تجرح، وإنك بالنَهرُ تقتل، لا تفعل، الفعل هذا لا يليق، فأصل الشكر شكران وأكثر لمن أَسرت بك بعمرها ليلاً من أيام صباها لليالي كبرها.

استدار راحلاً..

قلت له: تفضل يا عم، انتظر ههنا إنها تمطر ويبدو أن السماء تتوعدنا بالمزيد.

قال: أحب المطر، أعشقهُ والسير تحته، ففيه البركة وفيه شفاء الصدور من ما فيها من أحقاد القلوب.

أتعلم يا بني؟ سماؤنا تمطر نحو الأرض وأرضنا تمطر نحو السماء! يشتد مطر السماء في الأوقات الشتوية، ويشتد مطر الأرض في الأوقات الليلية، مطرها ماء ومطر أرضنا دعاء، مطرها للعباد ومطر أرضنا من العباد.

ما المطر إلا بكاءُ السماء علينا لإحدى ثلاث: على ما يصدر منا من رذائلَ حزناً، أو على ما يصدر منا من المكارمِ فخراً، أو على ما عندنا من البهائم حقاً.

قلت: يا عم أراك عظيماً، كريماً، معطاءً، أُدعني لخير.

تبسّم ثم قال: يا بني أدعوك أن تُحسن، قال تعالى في سورة القصص ﴿...وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾ (77)، وكم من قصةٍ أحسن الله إلينا فيها، ورددناها للوجود سوءاً من بعد سوء، إحسانُكَ عليكَ أمر، وإحسان الله تم في الماضي، وحاضره ما زال، ولن يزول مستقبله.

يا بني أدعوك أن تشكر الله على نعمه، قال تعالى في سورة النحل ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (18)، كلانا يَعُجُّ، أما نحن "البشر" فَنَعُجُّ بالنعم من الخالق، وأما هي "الخلية" تَعُجّ بالسكانِ من النحل، وكلانا له واحدة، أما نحن فلكل منا روحٌ واحدة، وأما هي فلكل منها ملكة واحدة.

وعَجبي، إن نحن ناظرنا النحل نستعجب كثرتها، وإن نحن عايشنا النِعم نقنط قلتها، وإن نحن أحصينا النحل نحصيها، وإن نحن نحصي النعم لا نحصيها.

قال بعض السلف: "قد أصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا ندري أيهما نشكر، أجميلُ ما ينشر أم قبيح ما يستر؟"..

يا بني أدعوك أن تتعامل مع البشر كما تتعامل مع الغذاء، إنك إليه لمضطرٌ، فمنهم الفاكهة ومنهم الخضار، منهم ما تحب وتشتهي، ومنهم من لا تطيق ولا

ترتضي، منهم الغالي ومنهم الزهيد، منهم المفيد ومنهم اللامفيد، فعليك بالمفيد منهم واطرح منهم ما على ذلك يزيد.

وبعد دعواته الثلاث رحل قائلاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (2)، ختمها بسورة الفاتحة، بتعريف الحمد هنا تم حصرٌ للحمد، فهو لله وحده لا شريك له، والحمد أوسع من الشكر.

وقد جاءت الآية بالفاتحة، فالحمد فاتحٌ للحياة، لليوم، للآن، فهي تعبيرٌ بالشكر لاستمرار الوجود بقدرة المعبود، سبحانك؛ علّمتنا الحمد فلك الحمد.

الفاتحة رضاً منا علينا، على وجودنا ورزقنا وماضينا، حالنا ومستقبلنا، محيانا ومماتنا، الحمد لله على وجود الأسرة والأهل والأصحاب.

الحمد لله على الحب والحياة والخيال والواقع والطموح، الحمد لله فليس بالإمكان أبدع مما كان، فقدرته وسعت كل شيء.

ها قد عاد موسى من رحلته التي لم أدرِ بأيِّ أرض كانت تُقام، دخل الغرفة دخول الشجعان، أظنه انتصر على مهام يومه انتصار الأبطال، فقمت وصافحته، استغربت من نفسي مصافحته، أتكون المصافحة هذه مباركةً لنصره؟ أم ابداءً للغريب مما حدث بيومي؟

صدقاً، قليلةٌ هي المصافحات بين المتجاورين في الغرف، أيكون التقارب الجسدي والتواصل البصري مدعاة لفقد لذةِ وأجر المصافحة؟

في المصافحة مسحٌ للقلب من كل شائبة، ورشوة للعقل نحو كل فائدة، إلاّ أنه فهمني وربَّت على كتفي وقال: إذاً كان يوماً عظيماً.

قلت: نعم إنه كذلك، لقد جاءني جوابٌ من عدة أجوبة، لسؤال واحد اعتدته في كل صباح، أن لا أدري بمن سألتقي هذا اليوم؟

قال ضاحكاً: ألم تقرأ البطاقة؟

قلت: بلى.

قال: قطعاً لا، لو أنك قرأتها لأخذتها أخذ المقاتل للغنيمة، هي عادتك.

قلت: ومالي بها!

قال: عُد، عليك بها.

فلما عدتُ لها أمسكتها بيدي مسكة المتفحص، وإذا مكتوب على الخلف منها:

إنه المنتصف من حزيران..

كل عام وأنت بخير..

صرخ موسى بأعلى صوته قائلاً: كل عام وأنت بخـــير، فـــدخلت جمـــوع الأصحاب من كل باب ونافذة، اقتحموا بيتي مسلّحين بهدايا كما اقتحم موســـى قلبـــي بكلماتٍ على بطاقة.

الآن متأخراً عرفت سبب وجود البطاقة أمامي منذ وقت طويل ولا أدري أن بها المستحيل، صدقاً إن في جعبتك يا موسى المزيد.

المُقتَطَفَة الثالثة ..

مُقتَطَفَات مِنْ الوَرْد

مُقتَطَفَات مِنْ الوَرْد ..

يصادف اليومَ ما يسميه الآخرون بعيد الحب، بالنسبة لي كنت على لقاءٍ مع حبيبٍ مصادفةً، إذ ما زلت أجمع مقتطفاتي من الورد، وبالنسبة لموسى كان علـــى موعدٍ مع مسابقته الشعرية، كان قد كتب لها قصيدةً جميلةً أسماها "على فكرة"..

موفّقٌ يا موسى سأعود لقصيدتك الجميلة بعد حين.

سألته: ألن تحتفل بالعيد معهم احتفالَ الملكِ بالنصرِ الكبير؟ ألن تسهر وإياهم سَهَرَ المرابط على الخط المريب؟

قال: لا، قال تعالى في سورة الحجر ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَـــكْرَتِهِمْ يَعْمَهُـــونَ﴾ (72).

بِيعمهون أراهم يسبحون، وبِسكرتهم هناك يقبعون، يقبعون بقَعر بُحـــورهم، فبحورهم هذه ظلمات، ومن وراء ظلماتها ظلمات، يستشعرون في سكرَتهم اللذة، وفي عَمَههم يرون المتعة، لَعَمرُك وكأنهم يفرحون، بل إنهم مغرقون، فسباحتهم هذه إثْمٌ محسوب، ليومٍ مرقوب.

عيد العشاق حماقةٌ لا تغتفر، بغبائهم أعلنوا موته يوم أن نصَّبوا له يومَ عيد.

كان من العالم أن اتفقوا على ثلاثة أنواع من الأعياد، فكان أولها: لتعويض ما قتلوا، كما صنعوا والشجرة فَيَوم اقتلعوها كافاؤوا نُصُبَها بيومِ عيد، وكما صـــنعوا والعمال يوم سرقوا جُهدهم عوضوا عَرقهم أيضاً بيوم عيد.

وثانيها: تعويضاً لمن أهملوا؛ كعيد كيرونوهي، وهو يوم عيد في اليابان لتكريم المسنين باحترامهم، أو كعيد الأم إذ نسوها وعادوا ليتذكروها من بعد حين بعيد.

وثالثها: احتفالاً بما مضى وما لن يعود إلا من بعد عام، كعيد نيروز للإحتفال بأول يوم في التقويم الهجري الشمسي، أو كعيد يوانشياو ليلة الخامس عشر مـــن الشهر القمري الأول، وكلاهما يوم عيد في الصين.

إلاّ أنّ في عالمنا الإسلامي حيث الريادةُ الفكريةُ، حيث العيد مكافـــأةٌ علـــى الطاعة، حيث للمكافأة هذه أيضاً مكافأة، ما العيدُ إلا احتفالٌ بطاعةٍ جماعية بـــين جموعِ المؤمنين، أخالها صورةً عن احتفالهم يوم لقائهم بالله، ففيه يهنئون بعضـــهم بعضاً على ما حمَّلوا الملائكة من طاعاتهم لتقوم بدورها بتدوينها بالصحائف.

كم جميلٌ أن يكون التقاءهم يوم عيدهم بالصلاة، لفرطِ إيمانهم كان عيـــدهم صورةً عنها، وحدها صلاة العيد من تطفئ ظمأ التقصير، وحدها من ترخي جُهدَ المناسك، ووحدها من تعطي المكافأةَ كشعورٍ جميل.

أعيادنا هذه تتصف بالشمولية حيث الكبير والصغير، حيث العائلة الممتـــدة، حيث الفرح بالبذل والسعادة بالعطاء والمشاركة مع الفقير.

هما عيدان إسلاميان لا ثالث لهما، أما أنا فأضيف لنفسي عيداً ثالثاً خاصـــاً بذكرى مولدي، فأجمل قولٍ في الحياة عندي قولك لإنسانٍ في ذكرى ميلاده" كل عامٍ وأنتَ بخير".

كم يعنيني أن أعايد مولودي كل يوم، كم يعنيني أن أستذكر هذه الـــذكرى الثمينة عن طريق الذاكرة الحريصة، لا عن طريق المنبهات الحديثة.

عيدي هذا عيدٌ في خيالي حصراً يُقام، وكم أعشق الخيال أكثر من الواقـــع! ففي الخيال أبني العوالم بلا تكلفة، وأحضّر الرواد بلا وثائق ولا أمتعة، فهويتـــهم الحب ومتاعهم القلوب.

الخيال! حيث اللاحدود وكأن الحياة فيها جنة، والحياةُ فيها أصـــنافٌ مـــن الجنون، فنصبت له مسرحاً من الأحلام، ودعوت زواره من الواقـــع، أرواحـــاً لا أجساد.

قد كان وبدأت أبني في خيالي خمس ممالك، أردتها أن تطوّقني كمـــا تطـــوّق قلادة الحُكمِ عُنُقَ المليك، فلما فرغت من ممالكي، قررت تنصيب أمراءَ على أربـــعٍ منها، كان كل ظني أن يكون الأمراء الأربعة فيها من الخالـــدين، إلا أن واقعـــي صدمني بالغريب، سأقيم سنوياً حفلاً جديداً فأقتطف لكل مملكة منهم أمير، ومـــع هؤلاء الأمراء الأربعة يكون جمعي بعيد مولدي قد أقيم، ومعهم ملـــيكتي طبعـــاً، مليكة مملكتي الخامسة فلا غيرها هناك يقيم، رضيت بقائها الأبدي علـــى عـــرش قلبـــي العميق الصغير.

كانت المملكة الأولى بساكنٍ من أقارب والدي، لعلي أشتمُ دماءه وعَرَقَهُ من حولي، فما في جسدي من دمائه لا أشتمه فقد غلّفه النسيان خير تغليف.

والثانية بسكانٍ من أقارب والدتي، لعلي أذكر بسكوني إليهم سَكَني في ذاك الرحم الصغير، فَكِبَر حجمي وكِبَرُ قلبي أنسياني عَونَ ذاك الحبل القصير.

وأمّا الثالثة سكنها أصدقاء طفولتي، أصدقاء الطفولةِ من النوع الثمين، إذ ما زلت أتساءل أن كيف انتقانا الله فريقاً من بضعٍ وثلاثين؟ معرفتي فيهم منذ العديد من السنين، متقاربين من النواحي الإجتماعة، أنقياء القلب جمعتنا معاً براءة الطموح حيث لا غيرة ولا ضغينة، لا حقد ولا حسد، حيث كان التفاوت بيننا لا يتعدى بضعَ علاماتٍ على ورق، حيث صداقتنا كانت تُوَثَّقُ كل يوم وتتجدد كل أسبوع وتنتفض نهاية كل عام، منهم ما لم أنسَ ومنهم ما بدونه لا لن أعيش.

وأما الرابعة سكنها أصدقاء مراهقتي، أصدقاء المراهقة فيهم اختلاف كبير، إذ أن التوافق الفكري بيننا أكبر، فاختيارهم كان من بين المئات، حيث الإتجاهات الفكرية متنوعة كسكك القطارات، رغم اختلافاتنا الإجتماعية وجدنا ما ربطنا معاً فانزلقنا نحو بوتقة الصداقة بعزيمة ملئها إرادة الوحدة تحت كنف راية القدير.

تناوب سكان الممالك الأربع على ارتداء الأوصاف ما بين صديقٍ وصاحبٍ ورفيقٍ وخليلٍ ونديم، لا عجب أن أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم دفنوا بجانبه، فالصداقة أثمن من الثمين، أكثر ما أثارني للصداقة كان قول الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه حيث قال:

إنَّ أخاكَ الصِدقَ مَن كان مَعك

ومَن يَضرّ نَفسَهُ لَينفَعَك

ومن إذا رَيب الزَمَان صَدَّعَك

شَتَّتَ نَفسَه فيك ليجمَعَك

إلاّ أنّ منهم من قال عنه تعالى في سورة الزخرف **﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾** (67)، فكم من خليلٍ زُخرِفت لنا أفعاله، وتَحَلّت علينا كلماته، اتخذناه اليوم خليلاً ووجدناه يومئذٍ لئيما.

وكأن لنا مرآةً يوم القيامة ستُنصَب، مرآةً ذاتَ قدرةٍ على فصل الزُخرف عن المضمون، وكأنها تعكس واقعك المزعوم الآن خيالاً مسحوراً غداً.

كم سترى فيها من الأخلاء من هم في الواقع أعداءً، إلا المتقين، كم من صديقٍ حميمٍ اليوم ستراه عدواً لئيماً، إلا المتقين، فها هي تكشف الفكاهة كذباً، والمزاح غيبةً، والصراحة نميمةً، فقد كانت زخارفُه ضلالاً وحلاتهُ قباحة وانجذابنا نحوه نحو نـــار، إلا المتقين، إلا المتقين.

وَرُبَّ أَخٍ وَفَيْـــــــتُ لـــــــهُ وَفِـــــــيٍّ

و لكـــــن لا يـــــدومُ لـــــه وفـــــاءُ

أَخِـــــلاَّءٌ إذا اســـــتَغْنَيْتُ عَـــــنْهُمْ

وأَعـــــداءٌ إذا نَـــــزَلَ الـــــبَلاَءُ

يـــــديمونَ المـــــودة مـــــا رأوني

و يبقـــى الـــودُّ مـــا بقـــيَ اللقـــاءُ

الإمام علي كرّم الله وجهه ..

أسوء ما قد يحدث للوفاء هو وفاة الصداقة بـــين المتصـــادقين، إلاّ أنّ الحـــل بإنعاشها كما شاء القدير حيث قال في سورة فُصّلت **﴿وَلاَ تَسْـــتَوِي الْحَسَـــنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾** (34).

إذن! ادفع بالتي هي أحسن، فالثمنُ هنا سحرٌ تُبَدِّل به الحال أحوال، الـــدفعُ هنا رشوةٌ للقلب، فبها تسلبه العداوة وتستبدلها الحلاوة، وكأنـــك بدايـــةً تـــدفعُ ابتسامةً تُجَسِّد فيها على وَجهه من مثلها، وتُتبعُها سلاماً تصافح قلبهُ، تنـــزِعُ عنه غِشاءَ العِداء، فتطوّقه فلا تدع له من مهربٍ من القبول الحميم، هنا التطويق نـــوع من أنواع الإغلاق، إغلاقٌ لدفتر حسابٍ فيه قد فُصِّل القديمُ من شرور الدفعات.

وإن رشوت قلبه ورفض، فما عليكَ سوى بالشافعي وما نطق:

إذا المـــــرء لا يرعـــــاك إلا تكلّفـــــا

فدعْـــــهُ ولا تكثـــــرْ عليـــــه التأسُّـــــفا

ففي النـــاس أبـــدالٌ وفي التـــركِ راحـــة

وفي القلـــــبِ صـــــبرٌ للحبيـــــبِ وإن جفـــا

فمـــا كـــل مـــن تهـــواهُ يهـــواكَ قلبُـــه

ولا كـــلُ مـــن صـــافيْتُهُ لـــك قـــد صـــفا

إذا لم يكـــنْ صـــفُو الـــودادِ طبيعـــةً

فـــــلا خـــــيرَ في ودٍّ يجـــــيءُ تكلفـــــا

ولا خـــــيرَ في خِـــــلٍّ يخـــــون خليلَـــــه

ويلقـــــاه مـــــن بعـــــدِ المـــــودةِ بالجفَـــــا

ويُنكـــرُ عيشـــاً قـــد تقـــادم عهـــدُه

ويُظْهـــرُ ســـراً كـــان بـــالأمسِ قـــد خفـــا

ســـلامٌ علـــى الـــدنيا إذا لم يكـــنْ بهـــا

صـــديقٌ صـــدوقٌ صـــادق الوعـــدِ مُنْصِـــفا

تلك كانت ممالكي الأربع أما مملكتي الخامسة فكانت أنثى، وحدَها تجسّدت بها مملكةٌ هي عليها مليكتها، لا ينازعها في ملكها أحد، كانت تلقّب بالحبيبـــة إلا أنها لا تأتي إلا بزيجة، فطلبت من الله الحب الخالص من الزواج، وما حدث بعـــدها كان استجابةً للدعاء.

فبعد تجاوزِنا للموافقات الشخصية، وبعد اجتيازنـــا للإختبـــارات الطبيـــة، وحصولنا على الموافقة الإجتماعية وإتمام الإجراءات الشرعية، تمكّنا من الخروج معاً أنا وأميرتي باسم الزواج لا باسم الحب.

لا أدري ما بالك أيها الحب، أراك لا تملك أيّة مقاييس دنيوية لقياســـك، ولا شهاداتٍ لإثباتك.

قطعاً وثيقة الزواج لا تدلّ عليه، فليس من المنطق ربط الحب بوثيقة تســـمح بتكراره أربع مرات للرجل، وتربطه مع مستقبل النساء باليد التي قَبَضَت عليها من الرجل.

كنت دوماً أرى الزواج والحب موضوعين مختلفين، إلاّ أنني وجدت الحبَ حالة خاصة منه، خروج الحب من الزواج رذيلة، وحصره بالزواج خطيئة، وليس كل زواج تكلّل بالحب، الحب كالدم إن خرج من شرايين الشريعة فسد، وهو كالثمر على الشجر، إن لم يقطفه الزواج صار عرضةً للذباب.

والصدام في الحب كصدام آنيتين زجاجيتين، فإن صمدتا في وجهه كوفئتا بالإلتصاق الأبدي، وإلاّ تناثر جسداهما ببعضهما واندمجتا، إلاّ أن اندماجهما هذا يكون ميتاً بلا أرواحهما.

سَأَلَتْ: أمستعدٌ للإقامة بما يسمونه القفص الذهبي؟

قلت: كيف لهم أن يشبهوا الزواج بالقفص؟ أليس في هذا احتقاراً لسكانه؟ أهم طيورٌ؟ أم هم حيوانات؟ لا يقبع بالقفص إلا الخانع من الحيوان أو من لا قدرة له من الطيور بالطيران، وحتى أنه للأسماك لا يصلح أن يكون مكاناً للمبيت.

الزواج تركيبةٌ عظيمةٌ كتراكيب الشجر على الشجر، فالزواج اتحاد المرأة في غصنٍ بات هو زوجها، على غُصنٍ هو أبوه، من جذعٍ يكونُ عائلته، جذورها دينٌ وعاداتٌ وتقاليد، ماؤه يؤتى من أرضِ الإعمار، وسمادهُ يأتي مع عَبَق السنين، وما ينتج منها بدمائه وجسدها فرعهما الصاعد نحو السماء، أوراقه أحداثٌ للحياة وثمارها للوطن أبناء.

ووالله لو شيء للأرض بكتبٍ ككتب السماء ما كان هناك من هو أحق من كتب الزواج لتكون كتبها.

سألتني لأي مدارس الحب تنتمي؟

قُلت: أو للحب مدارس لأنتمي!

قالت مستدركةً إدراكي: مدرسة النظرة ومدرسة العشرة.

قُلت: وما الفرق؟

قالت: في مدرسة النظرة قد يكللُ الحب بالزواج السعيد، وفي مدرسة العشرة عادةً ما يكلل الحبُ بالزواج البهيج.

قُلت: إذن النظرة ألذ.

قالت: العِشرة أضمن.

قُلت: أنا لا أبحث عن خادمة.

قالت: أنا لا أبحث عن معيل.

قُلت: أخشى على الحب من الملل.

قالت: أخشى على الحب من الدخيل.

قُلت: من الناس من يتزوج لإسقاط فريضة الزواج المفروضة من قبل المجتمع، إلا أنني أريده لإقامة فريضتي من الحب.

قالت: ومن الناس من يعيشونه بنظرة التعود، وأنا أريده بنظرة التجدد.

قُلت: من لا يجد أثر الزواج في نفسه عليه أن يعلم أنه عاجز فيه.

قالت: ومن ورث فكرة الزواج عن أهله عليه أن يعلم أنه سيعجز فيه.

قُلت: أول ما يسأل عنه المتزوجون حديثاً، أوقع الحب؟

قالت: أول ما يجيب المتحابان: إذا صَلُحَ الزواج صَلُحَ الحب.

ثم تابَعت: أتساءل؛ أتفضل الزواج مِمّن يحبّك أو مِمّن تُحب؟

قُلت: مِمّن يحبني إن كنت أنانياً، ومن من أُحب أن كنت من المناضلين، وإنهما لخياران لا ثالث لهما، فالمتحابون إما حبيبٌ وإما محبوب، وإنّ منهما لمن هو أكثر حباً.

سَأَلَتْ: كيف ترى الطلاق؟

قُلت: الطلاقُ انهيارٌ لبرج المشاعر على مرأى من المحيطين، يردي الأبناء قتلى ويصيب الأهل جرحى ويبقيني أنا وحيداً، إذ تتفسخ روحي أرواحاً ويمتلىء قلبي بدمائه والجراح.

قالت: أقول لك كما قال مصطفى محمود: "الحب هو الجنون الوحيد المعقول في الدنيا، وأريد أن أجنّه معك".

قُلت: وأقول لكِ كما قال مصطفى محمود أيضاً: أريد "لحظه تجعل لحياتى معنى، وأخالها ستكون معكِ".

سَأَلَت: أي الألوان تريدني أن أرتدي؟

قُلت: إياها وما غيرها، ما كنتِ أنتِ ترتضي.

سَألتُ: وأي الألوان لي أنا ترتضي؟

قالت: بجوابك كل الألوان لصاحبه تليقُ ومعه تلتقي.

قدّمت لي كأس ماءٍ فشربته، فعاودت مِلأه وقالت: كذلك حبي يعاد تعبئته والثمن إليه الصدق العظيم.

سَأَلتُ: كيف ترانا نكون بعد عام؟

قالت: العام! ما هو إلا ذكرى ليس إلا ..

ليس إلا ذكرى للماضي المتجدد حيث الآمال كلها خير، والأحلام كلها جمال، حيثُ لا شر منكَ ولا شر عليك، حيث تكون الطبيعة ونفسك وروحك وجسدك مع روحي أجزاءً مترابطة توافق موسيقى السعادة الإنسانية.

هو ذكرى تاريخ الميلاد المجيد لمملكة السماء التي سأخلد فيها بجانبك، تَبُثُ في نفسي وروحي وجسدي وطموحي كل إيمان وخير وحب وعلم وعمل.

هو ذكرى لتحقيق الأحلام في المستقبل، حيث نريد وحينما نريد لا يحددنا مكان ولا زمان، حيث أحببتك حباً خالصاً، حباً أبداً لن يموت.

كانت في خاتمها الجميل ياقوتةٌ زرقاءُ مذهلة، لا أدري! أتريد أن تَبُثَ لي من زرقته فكرة أن حبها يقاس بالبحار إن أرادت تجمعاً؟ أم أن المطلوبَ من محبّي قلبها حباً كالسماء مجتمعةً؟

فجأةً وهبتني ساعة يدها هديةً، لفرط حالتها العشقية نسيت أني لن أتمكن من ارتدائها، إلا أني أهملت الخطأ الذي جسدت به عشقها، فكأنها أرادت أن تهبني أغلى ما تملك لحظتها بملء إرادتها لتوهمني أني لن أسرق منها أغلى ما تملك "فؤادها" بملءٍ إرادتي.

قُلت: كيف لي أن أسألك عن عُمري؟

فقالت: عمرك محفوظ في عداد قلبي.

فقلت: بل أنتِ عمري، أنتِ عمري الذي لا يقاس بالزمن، يقاس بالعشقِ وبالعشق فقط! فطوله بضع أحلامٍ وعرضه حفنةٌ من الهيام ويرتفع أشواطاً من الأمل، وما الساعة عندي إلا أداةً للتذكير بفكرة القياس فقط، فالقياس هنا لكمٍ لا محدود، وجد في قلبي كل الحدود، حدود الأبد مع الأزل، حدود المعقول مع اللامعقول.

كانت نتيجة لقائنا حباً لم أشهد له مثيلاً ولا أرى الخيال إليه يطيق، فنتيجته كانت أن وقعت على مائدةٍ من حبٍ عليها من أصنافه ما زاد على ما أريد.

كانت نفسها كافيةً أن تزرع في قلبي حباً بدأت فوراً بقطفه ككلمات، وكأنني في حديقة عشقٍ ورودها من هيامٍ وثيق، تلاعبت بي ككرة من بين هيئات الحب تراني أهيم، أرْدتني بمدفع حبٍ قتيلاً عشيقاً بالصبابة أقيم.

إنها عالمٌ مذهلٌ إذ تَجَسَّدَ فيها الحب كصفائح عشقيةٍ، تسبح على حممٍ من الغرام، ماؤها الصفاء من على تربةٍ من الجمال، في كهوفها الرضا ومن شلالاتها السعادة، تنارُ من شمسٍ منيرةٍ أحسبها أمها، ومن قمرٍ مبهر أخاله أباها، تدور من حولها أقمارٌ مبهجةٌ أظنهم إخوتها، هي عالمٌ سعيدٌ متكاملٌ خُلقَ كمثال على كمال الحب، فشهد لها العالم بكمالها من الإناث.

ذاتُ صوتٍ مخمليٍّ، ساحرٍ بلا خداع، ماكرٍ بلا خبث، جميلٍ بلا تكلف، جبارٍ بلا جبروت، طاغٍ بلا سيادة، آسرٍ بلا قيود، مسيطرٍ بلا تحكّم، حزين بلا دموع.

أكاد أن أُجزمَ لكم أنها أنهت كل مقررات الحب النظرية، إلا أن ما فيها من توتّر يوشي بأن قلبها لم يطأ ملعب الحب قط، فقيامها بتمارين إحمائه مهما تعددت لا تُفقد مباراة الحب الأولى حماستها.

لها صدى كالصوت إلا أن صداها أغرب وأشد عجباً، وكأن صداها مرئيٌ ملموس، فإن نَظَرَت كان صداها النور وإن اشتَمَّت كان صداها العبير، إن قالت كان صداها الفعل، وإن فعلت كان صداها الإعمار، إن تبسّمت كان صداها الفرح، وإن سَعَت كان صداها السرور، إن عُشِقَت كان صداه الجنة، وإن أَحَبَت أتمنى أن يكون صداي أنا الأبد.

هي كالزهرة لها أوراق، إلا أن أوراقها حب، كالزهرة لها ألوان، إلا أن ألوانها حب، كالزهرة لها عبير، إلا أن عبيرها حب، كالزهرة لها جذور، إلا أن جذورها حب، كالزهرة لها جاذبية، إلا أن جاذبيتها حب، كالزهرة تُسقى، إلا أن سقياها حب.. هو حبي أنا.

صرت أَحيكُ بكلماتها رداء ودٍ لأرتديه درعاً عن ملامح شوقي الفاضحة، وإذا بها تباغتني وتنكّس رايات وحدتي السافِرة. ألبستني تاجَ هيامٍ مرصّعٍ بألماسات الأبد، قائلاً لي قلبُها: إسعَ في مناكبي، واحترس! فأعاصيرُ عشقي أعاصيرٌ مدمّرة، وزلازله زلازل مُهلكة. اسعَ بصدقٍ تلقف منه غمراتِ حبٍ مجلجلة، وكلمات هيامٍ مدوّية، توقَّ الحذر؛ قد يلقيكَ نهر عطفي الجارف على مضاربي.. مضارب اللاعودة.

بَصُرتُ آناء لحظة وداعنا العصيبة بضعاً من العبرات المتلألأة الصغيرة في كلتا عينيها، كانت تستتر خلف حاجزٍ أحسبه من نسيج الأمل الوثيق، كان تتعانق في

ما بينها وتعانق عينيها لعلها تكفّ عن رثاء لقائنا هذا، إلا أنهن قـــررن الســـقوط شهيدات من أجل حياةِ قلبها.

ووالله لن ترى ما يساند قلبها على مصابه إلاّ هـــذه العـــبرات، إذ انـــتحبن باكيات معها، من فرط بكائهن تداعين متدحرجات على وجنتيها وصولاً للنهاية، فألقوا بأنفسهن متتابعات منتحرات إلى حجرها، فشتت الإرتطـــام أجســـادهن، وبَخَّرَت حرارةُ الأحزان ما تبقى منهن.

بالنسبة لي تخيلتها من قبلُ فلسطينية الأصل أردنية المنشأ سورية الطباع لبنانية الهوى، تهوى أهرام مصر وأبراج الإمارات، تحب جنان تونس وتعشق من الخلـــيج الصحارى. أردتها، أردتها عربية بتفوق، أردتها شاميةً بامتياز، أردتها مقتطفـــةً مـــن الورد العربـــي، إلا أنها كانت مقتطفةً من ورد الحياة فما فيها من حـــب أبـــداً لا يقاس، أعلم أنني ما زلت في الخيال أهيم، إلا أني في الواقع سأُقيم وإليها أَسيراً على روحي سأسير.

يـــا نجمـــةً أنـــا في أفلاكهـــا قمـــرٌ

مِـــن جـــذبها لي قـــد أضـــلك أفلاكـــي

النـــار بالنـــار، لا تطفـــأ إذا اتصـــلت

فكيـــف أصـــنع في قلبـــي لينســـاكِ؟

الرافعي..

فُقِدَت كَلِماتُ هذه الصفحة مِنْ بَين المقتطفات ..

"إنّ الجمال ليس كلمةً وليس شكلاً وليس حركةً رشيقة.. إنّ الجمال في تعبير هذه الأشياء كلها عن شعور حقيقي صادق.. إن الجمال في توظيف الإنسانية لمواهبها توظيفا جميلاً"..

مصطفى محمود ..

إذن هن الخمسْ مقتطفاتي من الورد، وهي منهن المقتطفة من الحياة، اعتـــدت كل عيدٍ أني معهم أقيم، وإن كان منهم من هو في الخيال، وإن فصل بيننا المـــوت الزؤام، إلا أنني عهداً معهم سأقيم، فتلك الليلة تعني لي الكثير فهم أثمن ما في حياتي من رفيقةٍ ورفيق.

عدت لمنـــزلي شارد الذهن، وإذ بموسى قد سبقني يكتسي مزاجه الغاضب فرحٌ شديد، كمكعبات جليدٍ تسبح فوق كأسٍ من العصير، أشعلت المذياع وإذا به يبث موسيقى، كانت من الإيقاعِ ذي الريتم السريع، ابتسم موســـى لـــدى سماعها.

كنت دائماً ما أتساءل؛ ما هو السر العظيم للتفاعل ما بين البشر مـــع تلـــك الموسيقى؟

غير أني لم أجد جواباً إلا في أصل كلٍ منهما، فالبشر مكتوبون من ســـطور الـــ DNA، والموسيقى مكتوبة من سطور النوتات، ولكلٍ منهما إيقـــاعٌ محـــددٌ، وأسلوبٌ معيّن يُعرَف بأدواته الخاصة، فما كان منها على وفاق تجاذب، وما كان على خلاف تنافر.

أما موسى فكان الإيقاع السريع هو ما يحرّك قلبه، فهو دائم الحركة، يحـــب الإنجاز بأقصر الطرق الممكنه، وكذلك موسيقاه المحببة تخبره ما تحمل من مشاعر أو كلام أو كلاهما بأسرع إيقاع ممكن، كانت الموسيقى البطيئة تطفئ فوران قلبـــه، والسريعة تثير أجمل ما فيه، لذلك تبسّم.

"الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازهـــا اللســـان، فأبرزهـــا الألحان"..

المنفلوطي ..

إلا أنه قال: أطفئها رجاءً.

فقلت له: ولماذا! أليست ذاتَ الإيقاع السريع؟

قال: قال تعالى في سورة العنكبوت **﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَـــعَ أَثْقَـــالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** (13)، فَبيفترون أراهم يبنون، يبنون نوعاً جديداً بافتراء، افتراءٌ بالبناء، يفترون ببناءِ حملٍ ثقيلٍ نهايةً، رغم هوانه كهوانِ بيتِ عنكبوتٍ بدايةً، فسرعان ما ينمو الحِملُ ويتعاظم، تتعاظم الأثقال هنا وكأنها بـــلا ثِقَل، ومع الثِقَل يأتي من الغير مزيد، ويكبر ويكبر وهناك المزيد المزيد.

هنا البناء لبنيانٍ لا نهايةَ له، بنيانٌ لمفترٍ لا مفرَ له، مفرٌ يومَ يأتيه السؤال، يـــومَ يَحملُ الأثقال مع الأثقال، يوم يَنكّبُ وقد فاته الفوت، يـــوم يـــتمنى أن يكـــون صاحبَ أيِّ فَيء، يوم يتمنى أن يكون هو باني أهونَ بيت.

أطفأته، ثم سألته مستدركاً ما نسيت: كيف كانت قصيدتك اليوم؟

قال: انتقدتني، ثم هاجمتني واتهمتني لجنة الحكام بالسرقة وطالبوني بالتعـــديل، قالوا: كيف لك بكل هذه يا ساعي البريد؟

قلت مستغرباً: ألم تخبرهم أن سعيك هوايةٌ منذ الصِغَرِ لا هُويّـــة العَمَـــل؟ ألم تخبرهم ما أنت الآن عليه تقيم؟

ألا يعلمون أن المكتوب إذا أُنجز كالعجين إذا خُبزَ، لا تعديل عليه ولا أحـــد إلى ذلك يطيق؟ ألا يعلمون أن الكلمات تلتئم التئاماً فيما بينها، وأن التعديل عليها جَرحٌ يفصله تأخرُ الإلهام، ألا يعلمون أن سكين التعديل ذات قدرة على القطع لا عَهدَ من بعدها بالإلتئام؟

قال: لا، ولكني قلت فيهم:

على فكرة "غير قابلة للنشر"

يأتي النقد من نبعين:
من النبع الحكيم ومن النبع اللئيم ..
أما للكريم فشكراً، إنك على النقد لعليم ..
أما للئيم فأقرأ على فكرة كم أنا لئيم ..
إن كنت لسرقتي المزعومة متوهماً، فاستيقظ إنك على وهمك متقوقع ..
عجزك عن فعلي لا ينفيه، وقولك عن قولي لا يغنيه ..
وقد سبقوك "وقالوا لأبـــي تمام لِمَ تقول ما لا يفهم؟ ..
فقال لهم: ولِمَ لا تفهمون ما يقال؟" ..
وأزيدك أيها اللئيم جواباً وأقول لك يا أبا تمام:
إنهم يفهمون، بل إنهم قد فهموا ما ألقيت لهم أن يفهموه ..
ولكنهم مغفلون، لا يكتبون بل لا يقرأون ..
إنهم مغفلون، لا ينصتون بل لا يسمعون ..
إنهم حالمون، إنهم ناقصون، إنهم غافلون ..
على النقد دائبون وعلى دبة الدواب يدبّون ..
عن الحقيقة غافلون، وعلى المظاهر متوهمون ..
يا إلهنا دعهم على الحق يسيرون ومن غفوتهم يستيقظون ..
ومن أوهامهم يخرجون ومن غفلتهم يفهمون ..

وربحت بها الجائزة..

تبسّمت له مباركاً..
ولا عجب أن يكون مزاجه غاضباً مكسواً بفرحٍ شديد..

يُحكى أن ..
"عَرَبِيّة" ..

يُحكى أنّه في العهد القديمِ قد أُقيمت مسابقةُ رسمٍ هناك في صفّ اللغات العريقة، كانت التحضيراتُ للمسابقةِ تجري على قدمٍ وساق، فكيف لا! فالسباق هذا حربٌ من التاريخ وإثبات للهُوية، جاءت متسابقاتها من كل حَدَبٍ وصَوب فكنّ لها يَنْسلون، كانت التنبؤات صعبةً بنتائجها من مسابقة، إذ كُن جميعاً من ذوات رفعةٍ ومكانةٍ في أقوامهن، فانتشارهن على رقاعِ البسيطةِ جدُ متماثل، واعتزاز جماهيرهن بهن اعتزازٌ كافرٌ لئيم، اعتزازٌ مُتَعَصّبٌ عنيد.

من بين جميع المتسابقات هناكَ ألقيتُ عيني عليها، تماماً كما أسقطت قَلبي صَوبها، كانت ذاتَ نورٍ جميلٍ ساطعٍ كالشمسِ، تَسطع علينا من بين أشعتها، كانت ضحكاتها بمعانٍ وكلماتها بالعميق منها، كانت تَلُفُّ جسدها بوشاحٍ أخضرَ جميلٍ، كان قد حُبِكَ بكلامٍ من لسانِ محمد صلى الله عليه وسلم، والذي أُوحي إليه من قَبلُ من ربه الكريم.

كانت خَلاّبَةَ المنظر ترتدي العراقة ثوباً موشحاً بسطورٍ من التاريخ، كان تاجها من حجارةِ فتحٍ مُبين، وأقراطها من مَجدٍ جَليّ، وأساورها من فخرٍ ظاهرٍ وسيم، كان في عِقدها الذي التف حول عنقها ثمانٍ وعشرين جوهرة تتوسطهم جوهرةُ الضاد الفريدة، كانت سامية ساميَّة، كانت تكنّى بين الأمم "العَرَبِيّة".

دَخَلَت علينا من اليمين ناحَ اليسار دخلةً متناسقةً إنسيابة، ما بين كُلِ مجموعةٍ من خَطَواتِها وثبةٌ آسرة، ووالله لكأنها متزلجةٌ على الجليد، أو عازفةٌ على ذاك البيانو الخشبيّ الأنيق، ذاتُ حروفٍ لا شرقيةٍ ولا غربية، على عكس مُسَابقَاتِها، عوانٌ بين ذلك جامعةٌ وتَزيد، على عكس مُسَابقَاتِها، كانت تبثُّ رسماتها من مسارح مخارج لا عَهدَ لغيرها بمساحاتٍ مثلها، على عكس مُسَابقَاتِها، كل حَرفٍ منها بحِرفة، على عكس مُسَابقَاتِها، كل حركة منها بكلمة، على عكس مُسَابقَاتِها، كل كلمةٍ فيها العديد من الأشقاق من الإشتقاقات، وحدها كلماتها من لا تضجر من وحدةٍ أبداً، فإن قالت كلمةً أوحَت لك بالعديد من مثلها، على عكس مُسَابقَاتِها. كانت تستعين بالجديد عليها فتحتضنه وتسقيه من مَصلها الأدبي العريق، كل حَرف منها نُطِقَ بمعنى للمنطوق، وكل أداةٍ منها كانت لوصفٍ مننا لشعور، ذات

إمكاناتٍ مهولةٍ مَهيبة، رسامةٌ فنانة، مسلحةٌ بأعتى الألوان المتوفرة، وتمتاز بالحصري من أدوات الرسم الساحرة.

وبدأت المنافسة، صارت تَرُشُّ من نفحاتها في الآفاق، فاستعملت من الإسم والفعل والحرف، كانت لوحتها محبوكةً بالقوافي، ازدانت بالعروض والنحو والصرف، خَلَقَت معنى جديداً للإمتياز، فقد كانت مكسوةً بالإتقان ومُرصّعة بجمال الكمال.

أوجست اللغات منها خيفة، فتغامزت عليها ولمزتها، عابتها وحاربتها، فاتحدت أحزاباً عليها، شكلت فيالق ضدها من شمالٍ وجنوب، ومن شرقٍ وغرب، إلا أنها حاربتها بلا خنادق، فقد خندقوا أنفسهم بأنفسهم بالمقارنة وبمحاولتهم بالمكر للمبارزة.

عندها قد بدأ التَفَرُّد وبدأت بمرحلة التميّز، وعندهن بدأ التكتل ورُسمت الخطوط للتوحّد، ووالله إنهن لجموعٌ خاسرةٌ هالكة، فتكتلهم هذا محرمٌ ومصيره للهزيمةِ محتم.

مضى الوقت على الجماهير مُسرعاً مُقلقاً، كنيزك كونٍ هوى نحو سوادٍ عظيم، كان الجميع على أعتاب النتائج قابعين.

وبعد برهةٍ من الزمن، بدأت تتكشف لوحاتها على التوالي لوحةً لوحة، تبدت اللوحات بإسقاط ما اعتلاها من حُجُب، كانت متكاملة معاً وكأنها رسمت أرضنا كلها! كيف لها أن تُظهر سِتر الأرضِ من كل صَوب على لوحاتٍ مربعةٍ مسطحة؟ كيف لها بإظهار الحياة باستخدام بضعٍ من الألوان الجميلة؟

وها قد حان دورها، كشفت الستار عن سحرها، كانت لوحتها لفظةً زاخرة، ووالله لن تجد فوق أديم الأرض كمثلها، خرَّ الحشود لها مصفقين كما خروا له ساجدين.

كانت لوحتها لفظةَ الجلالة ..

"الله"..

إنها العربية ..

المُقتَطَفَة الرابعة ..

في لِقَائِه

"صلى الله عليه وسلم"

المُقتَطَفَة الرابعة ..

في لِقَائِه .. صلى الله عليه وسلم ..

إنها الجمعة، والجمعة عندي بأحداثٍ ثلاثةٍ سأتلوها عليكم: خطبةٌ فغزوةٌ فمسيرة ..

الجمعة عندي تاريخٌ وإنجازٌ وتوثيق، ففيها أنا مع صديقي حصراً لا غير، لا يفتكنا من براثنها إلا ذاك الزاحف نحونا.. السبت.

الجمعةُ عندنا عنوانُ الجَمعَة ما بيننا؛ جمعَ اليد مع قفازه، الجمعةُ عندنا إضافةٌ للصداقة، فكما للمضاف مضاف إليه للصداقة إضافةٌ عليها.

أمّا المسيرة؛ فإنّا في كل جمعةٍ نستثمر ساعةً منها في السير مشياً على الأقدام بصمتٍ، كما يستثمر الأب حبّه في قَلبِ وليده بيقين. كم هي جميلةٌ هذه الساعات حيث نتبادل الحديث الصامت، نتصفح الأحلام الهائمة في الخيالات، كما نتصفح الوجوه المارة في الأحياء ما بين الطرقات.

كنا نبحر معاً وعلى حدة، فنتشارك الوقت لا المكان، فأنا أغوص في أعماق خيالي متجولاً بين أحداث الماضي مستقرءاً المستقبل، وهو يطير في فضاء الإنجاز مرتباً مهام أسبوعه المقبل.

ولا يَرُدُني للواقع إلا هو، إذ يُطلق من كلماته أعيرةً عشوائية يُردِيني بها واعياً على سطح الممشى، ولا يرده إلاّ حبل صوتي إذ يُحلّق حول عُنُقِ فكره الطائر فأجذبه نحوي إلى الأرض بجانبي.

أمّا الغزوة؛ فإنّا في كل جمعةٍ نحتفل بصداقتنا عن طريق غزوٍ لحضارةٍ جديدةٍ باقتحامنا لإحدى مطابخها، لطالما استشعرت جمال الحضارات عن طريق مطابخها، ففيها عَبَقُ البعيد. في المطابخ صورةٌ عن الطبيعة والمناخ هناك، إذ تَعبُر لنا منها رائحة سفرائها "التوابل" التي طالما استوطنت ذاك المكان وتخلقت بأخلاقه وعبّرت عن مكنوناته.

الغذاء كما الغناء كلاهما يرسمان هيئات البلاد لفَرطِ ما يرتادهما العباد، كلاهما فنٌ وله ذوّاقته، ولكلاهما إنتشار على أرض هذه الغبراء.

أمّا عن خطبة الجمعة في عصرنا هذا، سألت موسى: ما ترى فيها؟

قال: ما هي إلا كما قال الرافعي رحمه الله:

"وخَطَبَ العالِمُ على الناس وكان سيفه الخشبي يخطُبُ خُطبَة أخرى: فأمّا الأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهي حتى ينتهي أثرها، إذ هي كالقراءة لإقامة الصلاة، وكانت في عهدها الأول كالدرس لإقامة شأن من شؤون الإجتماع والسياسة، فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى.

وأمّا الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها، وهذه هي عبارتها: ويحَكم أيها المسلمون؛ لو كنتُ بقيةً من خشب سفينة نوح التي أنقذ فيها الجنس البشري، لما كان لكم أن تضعوني هذا الموضع؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتموني حيث أنا، تكاد شرارة تذهب بي وبكم معا، لأن في وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة.

أيها المسلمون، لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم، إلاّ إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافع عنكم، أيّها المسلمون غيّروه وغيّروني"..

أما عن خطبة الجمعة في يومنا هذا، سألني من بعد إنتهائها: ما ترى فيها؟

قلت له: أمّا اليوم فقد كانت إعادة ولكنها بلا إفادة، ويا ليتها كانت قراءة لإقامة الصلاة، فقد كانت قراءة لإقامة المنام، ووالله لو سُئِل الإمام عن ماذا تتكلم لأجاب الله أعلم.

قال موسى: لا أذكر منها رغم جهدي فيها وإجتهادي لاستذكرها إلاّ حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه، إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في طاعة الله، ورجلٌ قلبه معلّقٌ بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجلٌ دعته امرأة

ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجلٌ تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شمالُه ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه "(رواه الشيخان).

ثم أكمل الخطيب كلامه مسترسلاً، وتوقف حسّي وقوفَ جسدٍ منزوع الروح هنا، هي هائمة في الكون بخفة، وهو على الأرض متجمعاً ثقيلاً موثوق.

قلت: إمامٌ عادل! ماذا تقول في الإمام العادل؟

قال: أراهما قد كانا في يوم من الأيام شخصاً واحداً، يسمى إماماً وينعت عادلاً، وأمّا اليوم فهناك إمام وهناك عادل، وينعت الإمام بشتّى النعوت باستثناء العدل، وينسب للعادل شتّى المهام باستثناء الإمامة، فليمسي الإمام عادلاً، أو فليصبح العادل إماماً، وبه سيستحق أن يظله الله بظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

قال: وشابٌ نشأ في طاعة الله؛ ماذا تقول أنت في شاب نشأ في طاعة الله؟

قلت: وكأنها بيت، وخير بيت، جدرانه من المعروف وأسقفه من الخيرات وتربى به، سكن إليها فسكنت إليه، شبَّ فيها إلى أن شاب عليها، حوته من أرضنا وأظلته من سمائنا، فبها استحق أن يظله الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

قلت: ورجل قلبه معلّق بالمساجد؟

قال: هي لكم مساجد ولكنها للوجود منابت، منابت للروابط، روابط للقلوب بالبيوت.

هي لكم بيوت لله ولكنها مساكن لجنود الله، يسكنون إليها في سكون ويحلمون فيها بجنون، هي لكم جنون، ولكنه جنون استحقت به أن يظلها الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظله.

قلت: ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه؟

قال: أفعالٌ اقترفاها؛ تحابا، اجتمعا، تفرقا ... ووقع الحب، الحبُ هنا مختلف، فهو من المحبوبين لغاية واحدة وليس كحبنا لغاية مشتركة، حبهما دائمٌ لن يزول مسببه ولن يتغير مفهومه، أيكون حبٌ كهذا الحبِ بغاية مختلفة؟ وتلاه اجتماع وافتراق، وأراهما لفظين متضمنين لفعل واحد. تعايشا، فلا أرى بتحابنا في الله اجتماعاً ولا افتراقاً بل هو تعايش، تعايش أبدي، من الأزل إلى الأبد، وبه استحقا أن يظلهما الله بظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

قلت: ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله؟

قال: الفعلُ هنا فعلٌ غريب، فهو يكتب بأحرفٍ من خوف ويقرأ بمعنىً من الشجاعة، هي شجاعة ولكنها إذا ما اقترنت بلفظ الله تحولت للخوف.

ها هو يصدها، ليس بيديه بل بكلتا شفتيه، رفضها بكل شجاعة من نفسه، رفضها بكل خوف من ربه، وبه استحق أن يظلّه الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

قلت: ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه؟

قال: حدثٌ عجيب، ظاهره صدقة وباطنه رشوة، نعم إنها رشوة! اختلى باليمين لعله يُخاجلها، لعله يُداعبها، لا إنه يرشوها، لعلها تقوم بتلك المهمة، يوم تصعب علينا تلك الهنيهة، لعلها تستلم الكتاب يوم تسليم الحساب، إنها رشوة وأي رشوة، فبها استحق أن يظلّه الله بظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

قلت: ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه؟

قال: ثلاثةٌ هم من فاضوا وليس اثنين، عيناه من جسده دموعاً، وروحه من جوفه شوقاً، كان خالياً بجسده، مبالياً بروحها، ذكره أولاً واحداً أحداً صمداً، لفظه بلسانه، فدخل ذكره بجوفه، وسار الذكر بدمه، فشرّف أعضاءه وأنار أركانه، ثم صعد رأسه ففاض من عينيه كالفيضان، وبه استحق أن يظلّه الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

قلت: ومحمد صلى الله عليه وسلم؟ ماذا تقول عنه؟ ماذا تقول إليه؟

قال: محمد صلى الله عليه وسلم!

هو الفكر والفكرة ..

هو رسالةٌ وحملَ الرسالة ..

أمينٌ وأوصلَ الأمانة ..

بشرٌ فاق قدرات البشرية ..

إنسانٌ أفاض للجميع إنسانية ..

إنه أغلى من سكن القلوب وأثمن من سلب العقول وأكثر من صلى عليه من في الوجود ..

إنه العهد الجميل ..

إنه الرجل العظيم ..

إنه أمةٌ بعثت لكل أُمة ..

وها قد انقضت من قصته أجزاء وأجزاء وما زالت هناك أحداث وأحـــداث، فما زال لنا دَورٌ فمن منا لاعبه؟ إنه ساقي الحوض، فمن منا وارده؟

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت..

إلا وحبّك مقرون بأنفاسي..

ولا خلوتُ إلى قوم أحدّثهم..

إلا وأنت حديثي بين جلاّسي..

ولا ذكرتك محزوناً ولا فَرِحاً..

إلا وأنت بقلبـــي بين وسواسي..

ولا هممت بشرب الماء من عطشٍ..

إلا رَأَيْتُ خيالاً منك في الكأسِ..

ولو قدرتُ على الإتيان جئتُكم..

سعياً على الوجه أو مشياً على الرأس..

الحلاج، في حب الرسول صلى الله عليه وسلم..

سكت موسى برهةً ثم قال: حبّه صلى الله عليه وسلم ههنا، وأشار إلى قلبه، فربطتُ إشارته تلك إلى إشارته صلى الله عليه وسلم إلى صدره الشريف حيث قال "التقوى هاهُنَا" (رواه مسلم)..

فذكرته بها وأكملت قائلاً: هي كنـــزٌ وقد فُقِد منذ زمن بعيد، لعلّه خرج مـــن الأرض ولكنه عاد من جديد، عاد مع محمدٍ ومحمد لها لشديد، إنها هاهنا، إنها هاهنا!

كعادته أبانها كالحقِ للكون، آثر الجميع فأفشى من أسرارِ الكون، فإن سُئِلت أين كينونة التقوى فقل؛ التقوى هاهُنَا، التقوى هاهُنَا.

كم عظيمةٌ أخلاقه؛ تذكرت قوله تعالى في سورة القلم **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَـــى خُلُـــقٍ عَظِيمٍ﴾** (4).

هي شهادةٌ وبأي قلم قد خُطَت..

هي إيصالٌ وبأي كتاب قد وَصلَت..
أهو جبلٌ وأنت من اعتلاه؟
أهو هو جوادٌ وأنت من امتطاه؟
بل هو مرتقى عالٍ وأنت من ارتقاه ..
وإنه لعظيمٌ فمحمدٌ هو من احتواه ..

سُعد موسى بكلامي وقال متسائلاً: كيف استطاع أن يرفعنا إليه؟ إنها كلمة بعد أن أكسب الجميع أفقدها معناها، أتدري ما هي؟

حافظت على صمتي حفاظ صيادٍ على جسد عصفورٍ صغيرٍ قد اُصطيد، وأطلقت العنان لخيالي كما يطلق الرامي سهمه عالياً لعلّه يصيب.

فقال يائساً من انتظاري: بعد أن أكسب الجميع أفقدها معناها، قد كانت من قبل أن ينطقها كلمة تدل على صلة قرابةٍ موثقةٍ بالدم، وأمّا الآن ومن بعد أن أتم نطقها، أمست أعمق وأصبحت أقوى، هي الآن حلم لمن سمعها وحسرة على من لم يسمعها، هي صفات وعلاقات، هي ترابطات وتعايشات، واندمجت كلها بكلمة أَخ.

فهو أفضل من لعب دور الأب وببراعة، ودور القائد وببسالة، ودور النبي وبعزم، ودور الصاحب وبحب. إنه الكمال البشري، إنه النضج الفكري. هو القمة التي حملنا إليها بقوله لأصحابه: "أمّا إخواني فقوم يأتون من بعدي يؤمنون بي و لم يروني" صلى الله عليه وسلم (رواه مسلم).

وكأنّ فيه من ألوان الطيف صورةً، فألوان الطيف اتحادُ أجمل الألوان على حدة مشكلة قوساً من أسطورة جمال الألوان، وهو اتحاد أجمل الأدوار البشرية على حدة مشكلةً رسولاً أُسطورةً لكل زمان.

كان الرسولَ والصادقَ والأمينَ، كان الزوجَ والأبَ والصديق، كان المعلمَ والعالَم والمجاهدَ، كان الكريمَ والمعطاء والمحبّ، ووالله لا تندمج هذه معاً إلا في خُلُقِه، ولا تتسع لها روحٌ بشريةٌ إلا كروحه، ولا يمتثل لها جسدٌ إنسانيٌ إلا كجسده صلى الله عليه وسلم.

وكأنّ فيه من النجم صورةً، إذ أنه رمزٌ للجمال نسعى بإلقاء نظرنا عليه، ورمزٌ للحق نهتدي به إلى ربه سعياً إليه، نستأنس بنوره وندرس تحركاته، ونستقبل المستقبل من تاريخه بقراءتنا إليه.

"لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان، وحكماء الرومان، وعلماء الإفرنج، فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل والصبر والثبات والحب والرحمة والحكمة والسياسة والشرف الحقيقي والإنسانية الكاملة وهي حياة نبينا صلى الله عليه وسلم وحسبنا بها وكفى"..

المنفلوطي..

قال موسى وكأنّه مخاطباً إيّاه صلى الله عليه وسلم، قوله تعالى في سورة الشرح **﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾** (4). لقد وَقع ربط، وبالربط تم الرفع، رُبط ذكرك بذكره في مواطن رفيعة، من وقت دخول الإسلام إلى وقت آخر الخليقة، من الإقامة للآذان، للآذان تلو الآذان، من الفجر للفجر، من المشارق للمغارب، من جوف الأرض لعنان السماء.

لامس اسمك الكون فمسح عليه بلون ولون، لون التقوى ولون السلِم، لون الخير ولون الحب، هي ليست بحاجة للشرح، فالقلب لذكرك قد شُرِح.

أكملت عنه قائلاً: قال تعالى في سورة الأنبياء **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾** (107).

هنا الرحمةُ كالغيث، كلاهما يُرسَل من الله، أما الغيث فيرسله الله رحمة للأرض ليحييها من بعد موتها فيخرج منها حباً ونباتاً بإذنه تعالى. وأنت أرسلك الله غيثاً للعالمين، لتحيي القلوب من بعد موتها، فتخرج منها خيراً وإيماناً برحمته تعالى، ولكنّ الفرق بينكما واحدٌ فالغيث ليس الغيث الخاتم، وأما أنتَ فأنتَ النبي الخاتِم، يا خاتم الأنبياء.

اعتاد موسى كل ليلةٍ أن يكتب بريده الخاص لربه، وكأنّ اعتياده هذا لفرضٍ فداوم عليه، اعتاد كتابته بالأمل، فكل كلماته كُتبت بطموح، يغلفه بدعاءٍ ويطلقه لعنان السماء، كان يكتب طالباً مكافأةً بأن يرى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم بكلتا عينه.

تفكرت في لحظة لقائه المأمولة صلى الله عليه وسلم، أستكون واقعاً مرقوباً؟ أم مجرد حُلمٍ منشود؟ قطعاً إنها لحظةٌ للذهول.

كم جميلٌ أن نصطدم بعظمة من قد تقفّينا أثره كل العمر، كم جميلٌ أن نلتقي من سَعينا لتقليده، وأسقطنا كلماته على أفعالنا، وأفعاله على أفكارنا على طول الأيام وعلى مرَ السنين، خلقه شاهق، حِلمه واسع، أمله عظيم وثقته بالله أعظم.

"هيئة تفوقه أن يكون واحداً فوق الجميع فعاش بتواضعه واحداً بين الجميع" ..

خالد محمد خالد ..

تساءلت: أسأصافحه؟ أسيكون هناك سلاماً باليد؟ سلاماً أقصد به الملاصقة للأبد؟ أم هو احتضانٌ بالجسد؟ احتضانٌ أقصد به الإندماج، أعوّض به نفسي عمّا مضى من حياتها بعيدةً عنه؟

اللهم ارزقنا سلاماً بين أيدينا ويديه، اللهم ارزقنا إيّاه سلاماً جسراً واصلاً يَسري بالحب حصراً إلى قلبه الواصل ما بين جسده وروحه، فينقل المشاعر منا أرتالاً أرتالاً، فنقرأه بنورٍ بين عينيه، ينقل رسائلَ العشقِ الممزوجةِ بالشكرِ فتوردُ منه وجنتاه.

أسأراه باسماً صلى الله عليه وسلم؟

تذكرت قولهم في بسمته: "تستنير الجُدُر بنور وجهه" و"فكأنما الشمس والقمر يجريان في جبينه".. وكأنّ الله خَلق فيها نوراً وبهجةً، فسبحانه ..

وكأنّها بحاجةٍ لرَحبِ الفلكِ، فسبحانه ..

وكأنّها ترادف سِحر الغروب وأملَ الشروق، فسبحانه ..

وكأنّها دعوى للتفاعلات الكونية، فتتراقص الكواكبُ فرحاً بها، وتتلألأ النجوم خجلاً منها، فسبحانه ..

تناشرت مع الرسالةِ وكانت من دعاتها، فسبحانه ..

أوضع عليها الإقبالَ وأوضع فيها القبولَ، فسبحانه ..

لم نشهدها بعد ..

فلنعمل، لنتأهب، ولنترقب ..

لعلّها الحدث الذي سنشهد ..

هي مَطلبٌ لكل شَغوفٍ سمع عنها، فسبحانه ..

إنها "ابتسامةُ رسول"، فسبحان من خلقهُ، فسبحانه..

قال موسى: والله إني أخالُ الإنفراج ما بين شفتيه صلى الله عليه وسلم إن أراد تبسماً، كانشطار البدر إن أراد لما وراءه تكشّفاً، فتتكشف لنا في ثغره كوكبةٌ

من البدور. كيف للبدرِ أن يحتضن البدورَ؟ كيف لِلُؤلؤةٍ أن تخفي اللألئ؟ كيف للكنوز أن تتبدى في الوجه المكنوز؟ إنها ابتسامةُ رسول، فسبحان من خلقه، فسبحانه..

فُقِدَت كَلِماتُ هذه الصفحة مِنْ بَين المقتطفات ..

أيرمش بعينيه صلى الله عليه وسلم؟

والله ما الرمشة منهما إلا كسوفين متزامنين لشمسين كان وتجاورتا، لا تريان بعضهما البعض، فكيف للشمس أن تصدح في وجه أخرى؟

إلاّ أنّ قلبـــي تعلّق بهما معاً، فإت كُسفتا شققت عن قلبـــي صارخاً الشوق ليعودا فأُلاقيهما.

قلت لموسى: والله إنه لقِبلةٌ للكمال البشري، كلما سرتَ إليه إقتربت منـــها، كالصورةِ صيّرني هو عليّ إيطارها، مصبٌ للحب الكوني، ملهمٌ معشوقٌ هو هـــذا العاشق، أنشودة لنفسي أنشدها، لونٌ فريدٌ عشقته من البشر، نورٌ لروحي تُقتـــادُ على أثره، حبّه آسر يسعى لحشرنا للرحمن وفداً.

كلما ذُكِرَ اسمهُ تَبَسّمتُ بشفتيّ وعينيّ، وكلما ذَكَرتُهُ تَوَرّدت فيي وجنتيّ، أعياني شوقاً، أرهقني شغفاً، يسكنني الفضول لعينيه ويباغتني الطموح دوماً لملامسةٍ من يديه.

يراه قلبـــي ببزوغ الشمس يومياً وبولادة البدر شهرياً وسنوياً حين زيـــارتي للمدينة إليه، بيد أن مطمع حياتي هو أن أَسُدّ ظمئي من شربةٍ من بين يديه، حبّـــه بات في فؤادي مُوَجِّهَاً، فإن التفت ميلةً صوب مائلٍ جذبني وقلبـــي إليه.

سأتشبّه به كما تتشبّه الذرة بالمجرة، ومداراتها بأفلاكها، كمـــا تتشـــبّه وردةٌ حسناء في الأرض بوردة كالدهان في السماء، سأحاول اقتبـــاس الفعـــل الكامـــل البشري لإُسقطه على دعوى الكمال عندي.

وإن سألتني بعد لقياي به صلى الله عليه وسلم اللقاء المنشود، أجزم أن أقـــول لك: بدايةً صَمَتٌ وشلّت أطرافي، فكلي عجزَ عن كل شيئ، وبعد برهة تيقّنـــت الحقيقة، إنه هو، نعم إنه هو، فثار الكلام من فمي خروجاً وكأنه بركانٌ قد رمـــى بكلمات. كل كلمةٍ فائرةٍ سكنتها جملةٌ من شكرٍ واجبة، وكل جملةٍ ثائرة انفجرت كتاب حبٍ عظيمٍ للحبيبَ ووحده إليه، وأثناء ثوران بركان فمي بين يديه، باغتتني عيني ففاضت دموعاً لا أعي سببها.

أيكون المقصود بالدموعِ هذه الفرح؟ أم هي تطهيرُ العينِ مما رأته في الماضي؟ أم هي غسيلٌ لطمعٍ برؤية أوضح؟ أم هي رسالة شكرٍ منا إليه؟

شكراً؛ ما الشكر إلاّ كإهداء سمكةٍ لمن قد وهب نهـــراً يفـــيض أسماكـــاً، أو كقطف رُطبٍ لشقيقٍ من نخلة زرعها هو بيديه في إحدى الأيام.

ما الشكر إلاّ مكافأة شفوية تقدّر ببضعٍ من الحب من إحدى القلوب المُتَلَقية على ما صنعته إحدى القلوب المُلقية، ما هو إلا طوقٌ من الإمتنان على رأس الخـــير من الآخر، ما هو إلاّ عمود الإصرار في بناء المعروف المتبادل.

صدقاً كما قال تعالى في سورة النمل ﴿...وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ...﴾ (40)، فالشكر يُتداول بين الناس بالمقايضة، فإن أكثرت المبادرة منها ارتدّت أكثر فأكثر إليك، الشكر فنٌ وعلينا إتقانه، وهو عبادةٌ وعلينا اداءها، إنه استثمارٌ وعلينا الإستثمار فيه.

قال صلى الله عليه وسلم "لا يشكر الله من لا يشكر النـــاس" (رواه أحمـــد)، فكيف وإن كان الشكر لخيرِ الناس وأفضلهم؟ أليس الشكر له شكران؟ واحد على كماله، وواحد على إتمامه لمهامه؟ واحد على وجوده في زمنٍ قد مضى، وواحـــد على دوره في زمنٍ لاحق؟

إن كنّا نعجز عن شكر مُنقذنا من الغرق في الماء، فكيف بشكر مُنقذنا مـــن الخلود في النار؟ كيف نشكر من عاش من أجل حياتنا الأبدية؟ كيف نشكر مـــن مات وهو يوصي أصحابه علينا؟

"صلى الله عليه وسلم"..

المُقتَطَفَة الخامسة ..

أُحِبُّكَ رَبّي

أُحِبُكَ رَبّي ..

استيقظت ذات جمعةٍ فزِعاً، قَد أعياني سهرُ البارحة وكأن ساعاته تناوبت على امتطائي كفرسٍ هي عليّ الفارس أنهكت مني كل مَفصل، فما كان مني إلا أن هَمَمتُ بجسدي فجمعته ونشرته على أريكتي السوداء، لعلّ الفزع الذي به يتبخر.

ها أنا أراقب الساعةَ عقاربها منتظراً، مراقبتي مراقبةُ مرابطٍ على الحدود يرتقبُ العدى عن بعدٍ من أي مدى، وانتظاري انتظار والدٍ سيأتيه اليوم أول مولود، ما بالها تتباطأ؟ أتكون عقاربُ الساعة في الليل أبطأ؟ أم هي على قلبي باتت أثقل؟ أتبيتُ كما نبيتُ نحن البشر ليلاً، أم أنها أُنهكت من مناوبتها منذ الصباح الباكر؟

كأنّ درجات الوحدة تؤول لتجمّد سائل التعب بدلاً من مساعدته على التبخر، فأشعلت ما تبقى من الدافئ من ذكرياتي لعلها تساند حرارة قلبي على عمله، كان الفَزَعُ على جسدي ثقيلاً ثِقَلَ أرضٍ على جبل، قد ألبسني الفزعُ ثوبَ الحزن وشدّ علي بحزام الكآبة، مُهدياً لي بعمامة القلق.

فاجئني صديقي بإطلالةٍ من رأسه، كانت كإطلالة البَدر في ليلته، رأني وكآبتي نتسامر تسامرَ رجلٍ وزوجته، مفترشين الأرضَ همّاً مُستظلين بالكَدَر سماءً، هبط عليّ هبوط شهاب وقال: لا تحزن.

ذكّرني بقوله تعالى في سورة التوبة ﴿...إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ معنا...﴾ (40)، صدقاً إنه لقولٌ كريمٌ في سفرٍ اثنين، ومضى السفر منذ أمد بعيد، وما زال الصاحبُ مصاحباً لمحمد، وما زال المصاحب غير حزين، فالله ثالثهما، إن الله معهما، وها نحن نسافر سفرة أخرى وللآخرة الوجهة، اللهم أنت الصاحب في السفر فارزقنا صاحباً كصاحبه، للخير آمر، للدين دافع، للآخرة مُسافر.

فلعلّه يدعمنا نحو توبة نقوم بعدها ونقول: لن نحزن إن الله معنا، لن نكون اثنين الله ثالثهما، بل أمةً الله ربنا، أمةً الإسلامُ دينها.

قطع حديث ذاكرتي قائلاً: ما بال قلبك يا أخي؟ أراه وردةً قد ذَبُلت! أراه صوتاً قد بهِت!

فأجبت: جاءتني رسالةٌ في المنام بحبر القلق قد كُتبت، وبالغمّ والهم قد سُطّرت، ورقها شاحب، غلافها أسود، مضمونها سالب، لا مكان فيها لموجب.

قال: أمضمونها الرزق؟

قلت جازماً: لا.

فظنّ أني أجيبه على استحياء فقال: قال تعالى في سورة الطلاق ﴿...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (2).

وأردف قائلاً: وكأن التقوى هنا طلاق، فبها نُطَلِّقُ كلَ مَخرَجٍ مَسدود، وبها نُطَلِّقُ كلَ خوفٍ منا كمَرزوق، بها يُطلِق الله لنا المخارج وبها يُطلق الله لنا الأرزاق من غير المَحاسب، قال الشافعي:

عليكَ بتقوى الله إن كنتَ غافلاً
يأتيكَ بالأرزاقِ من حيثُ لا تدري
فكيف تخافُ الفقرَ والله رازقٌ
فقد رزقَ الطيرَ والحوتَ في البحر

قلت له: لا، إنه همٌّ مكسوٌ بغمٍّ، هل له من دواء يقضي عليه هذا الداء؟

أمسك بذقنه مَسكة من يقدّم تفاحةً لحبيبٍ له قد رآه، ثم قال: ردّها على منامك!

صديقي هذا شاعر اعتاد أن يُلهم قلمي أن يكتب بأطرف روحي كلمات، قال لي ذات مرة: "بسمه الرحيم استهيم وبسمه الرحمن يستعان، وبسم الله توكل، وبأول كتابه ابدأ فبدايةُ نزوله اقرأ، وإنك منه ستقتبس، ستتنظر فتندهش، ستستشعر فترتعش"..

أتبع واضعاً يده على قلبـــي كيَدِ أب تحمل طفلها الوليد قائلاً: كيف لهذا القلب المُحب أن يكون الهمُّ داءه وأن يكون الغمُّ رداءه، ألا يكون في حب الله دواءه؟

عادت ذاكرتي لقوله تعالى: ﴿... أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (28)، فقرأته عليه فقال: كم هي جميلةٌ سورة الرعد، ثم أتبع قائلاً: ذكرٌ كالبرق يسطع، ذكـــرٌ كالرعد يصدح، ذكرٌ كالقمر يدور، في أفلاك القلوب يجوب ويجول، يَلِـــجُ مـــن القلب للوجود، وبِفَلَكِه يحوم ويَجود، فإن أرتعدت الفرائس وانقطعت المَنـــافس، وإن أُبرقت العيون وأُرعدت القلوب، فاذكر الحي القيوم، ألا بـــذكر الله تطمـــئن القلوب.

تذكرت أيضاً قوله تعالى في سورة النصر ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّـــهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (3)، لغوياً سبِّح واستغفِر أفعال، منها المضـــارع والماضـــي والأمـــر، و(لسبِّح) معنى من معاني التنـــزيه والتقديس، ولكني أراه إذا ورد بنسقٍ كهذا زاد للمعنى وأضاف، واقتبس معنىً من معاني التحليـــق، فســـبّح هنـــا: أي نـــــزهّهُ؛ وبتنـــزيهك له أراك تحلّق وتنطلق.

وجاء (استغفر) ولمعناه فكرة فحواها طلب المغفرة، وأراه هنا ورد بنسقٍ فزاد وأضاف، واقتبس من معاني طلب العودة، العودة من بعد التحليق.

فلا بد لنا مِمّن يرجعنا للأرض من بعد التحليق، إنها قصة عظيمـــة بـــدأت بالتسبيح وتلاها استغفار وأفضت لتوبة، قصةٌ وأي قصة، قصةٌ تحقق للنفس النصر.

وتذكرت أيضاً قوله تعالى في سورة التكوير ﴿إِنْ هُـــوَ إِلاَّ ذِكْـــرٌ لِلْعَـــالَمِينَ﴾ (27)، فقرأتها عليه، فقال: صدقاً إلا أنه ذكرٌ، إرساله لنا نور، وتطبيقه علينا هدى، جزاؤنا به جنة، وعزوفنا عنه نار، وبغيابه عن الأفئدة وانقطاع سبيله عن الأذهنـــة، تتجمدت القلوب وتتكدّر، وتعيا قِيمُ الروح وتتكوّر.

سكَتَ ذاكرتي برهةً بقوله: قال تعالى في سورة آل عمران ﴿قُـــلْ إِنْ كُنْـــتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾ (31)، إنه ادعاءٌ تلاه أَمر، أَمرٌ تلاه حـــب، حبٌ ماذا يتلوه، حب من يستحقوه؟

أقبل ادعاءٌ من محبـــي الله، فتلاه أمرٌ قاطعٌ من رسول الله، فأعقبه اتباعٌ أفاضنا حباً من جانب الله، وكأنه سُلَّمٌ قصيرٌ بثلاثة مستويات، اختصر دربنـــا الطويـــل بثلاثةِ ارتقاءات.

ثم أخرج موسى مغلفاً من حقيبتة وقال: اتبع محمداً واكتب!

فقلت له بعينيّ أن ما أكتب؟

قال: أكتب أحبّك ربـــي، أحبّك ربـــي ..

ففار حبري من قلمي على المغلف كاتباً:

رسالة إلى الله ..

ربـــي! أحبُّكَ حباً وإنه مرجعٌ للحب، فهو حبٌ كله سعادة يفـــيض علـــى قلبـــي نوراً يُسدل على حياتي جمالاً، أحبّكَ حباً فيه انسحرت وله سلّمت، هـــو مقياسٌ للرضا عن النفس، وللكمال بالعمل، وللمحبة بين الناس.

حُبّكَ ربـــي تطويقٌ للمشاعر نحو الحق، وثباتٌ للفِكر على الصـــواب، حُبّـــكَ ربـــي سباقٌ بين القلب والجوارح، وبين الفطرة والعقل، ربـــي إنّا نحبّك بحب فأحِبْنا.

أُحبّك ربـــي ..

توقف حبري ههنا تاركاً نفسي تتساءل: أحبار! يا ليت شعري من أين تولد هـــذه الأحبار؟ ما هي ماهيتها هذه السوائل؟ أأقول أن أصولها تعود للدمع؟ أليســـت الفَرِحَـــةُ والمحزُونَة منها بآثارٍ كاتبة! أأقرّ أن جذورها تمتد من الدم؟ أليست القَرابة والجِراحة بنتائج مماثلة! أأجزم أنها تسيل من مضارب الماء؟ ألم يجعل الله من الماء كل شيئ حيّ!

ما بالك أيها الحبر؟ من أنت؟ والله إني لأرى في أصل كل نقطةٍ منه دمـــعٌ أو دمٌ أو مطر، الحبر ماء النفس والذي إن سال كان أحباراً في أقلام تَتَأَلب، وإن جَمُدَ صار كلمات في سطور تُتَتَبَّع، وإن استُنشق صار مشاعر في قلـــوب تتضـــرم، وإن مُسح بات ذكرى في عقولٍ تَتَجَذَّر.

وعلى طول الأيام وعلى مر السنين، شَرِبَت الأقلامُ أحبراً حتى ارتوينا فضولاً، ورشقه كلاماً حتى اكتفينا سماعاً، ونفد ذخيرةً فور فوران دموعنا نفاذاً.

"إن أعظم لحظات حياتي ليست في فتح القسطنطينية، ولكن في لحظة أجد فيها ربـــي في قلبـــي ينير صدري، وأجد إيماني ينير بصيرتي، وأجد حالي يرضي إلهي"..

محمد الفاتح..

قال موسى مستبشراً: عليك بها كل يومٍ، إجعلها سلسلة دواء، ففيها حل لغزِ كل داء، إجعل من حبر قلمك رسماً تصور به حبّك لله عز وجل بأشكال وتشبيهات مختلفة، أحبّك ربي تجديد لروح الدين في القلب ولمعنى الحب في النفس، فجميلٌ نُطقها وجميلٌ تخيّلها وجميلٌ كتابتها، والأجمل عندي قراءتها بخيال قلمك، نحبّك ربنا..

وختم حديثه بجملةٍ من تبسّمٍ كتبسّم ملكٍ فاز على أرض عدوه بمعركة المعارك.

تذكّرت رباعية جعفر الصادق رضي الله عنه حيث قال:

عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿... وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، لأني سمعت قوله تعالى بعدها يقول: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾..

عجبت لمن يغتم كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿... لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإني سمعت الله يعقبها بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾..

عجبت لمن مكر به ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿... وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا...﴾..

عجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع الى قول الله تعالى: ﴿... مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾، فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿... إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ...﴾..

لم أعهد مثلك يا صديقي، كم من مرةٍ دخلنا سباق الصداقة فسبقني، وكم من نزال كرمٍ فزتَ به إذ نازلني، قتلني نقصي تجاهك، كما أسرتني أنت بقريب كمالك.

جلست وقلمي نفكر أن كيف لنا أن نهيكل رسالةً يوميةً في تقويمنا الشهري؟

بدايةً، الشهر عندي ثمانيةٌ وعشرون يوماً موزعون على أربعة فئات، كل فئة اسمها أسبوع، فلا مكان للكسور في تقويمي، كما لا مكان للسقيم من الأصدقاء في قلبي، إذن هي أربع رسائل أكتبها وقلمي، في كل رسالة سبعة أيام عنوانها (رسالة إلى الله) ومضمونها (أحبّك ربي).

ما أدهشني لاحقاً أن موسى كان قد كتب على طرف المغلف الآخر نيابةً عني:

"بدايةً كنت ساعياً جاهداً باحثاً عن وصفٍ فقط، وصفٍ لحبٍ منّا إليك، ولكني بقدرتك وجدت نفسي في طريق مختلف، فالحب ككلمة فشل بإيصالي للهيام المنشود بل وفشل بتوثيق عشقي القائم، الحب كلمةٌ باليةٌ قاصرةٌ عن التعبير عن الحب الدنيوي، فكيف إن كان الحب منوطاً بك؟

فكانت البداية بالتخيل، تخيلٌ أسرى بي للتدبّر، تدبّرٌ عَرَجَ بي للإيمان، أيكون الإيمان أعلى مراتب الحب؟ أيكون الإيمان هو ما كنت ساعياً جاهداً طامحاً إليه؟ فالحب يَصلحُ عن بعد، والحب موجودٌ وإن كان في النفس مسجوناً لا عملَ يتبع إليه، ولكن الإيمان لا يصح إلا عن قرب وهو ما يدفع بالتشجيعٍ للعمل، فالإيمان تصديقٌ وإعتقاد، والذي هو سيطرةٌ على الروح والنفس والجسد معاً، هو رباطُ الحرية، وأفق الخيال المأمول، الإيمانُ شعلةٌ من طاقة وكأنها نورٌ عظيم يسيطر على كل ما يكون مني وما سيكون.

حبّك يا إلهي إيمانٌ بك فاق حد العقول، إيمانٌ هدم معنى الحب للدنيا وبناه عظيماً إليك، حبّك يا إلهي أكسب الحب الدنيوي مدى لم يكن لأحدٍ من أن يطمح إليه."

آمنت ربي..

أحبّك ربي..

يُحكى أن..
"قُلوبْ"..

يُحكى أنّ زهرةً رحّالةً بيضاءَ صغيرة روت في مذكراتها قائلةً: كان مني ذاتَ يومٍ وبعد نهاية عراكٍ مضنٍ مع وحوش البرية الضارية، إذ ألقوا بـــي من سفحٍ لوادٍ ومن وادٍ لنهر، أن أفقت منهكةً بجانبه، كان جسداً بشرياً أسمر ملقى علـــى الأرض قرب مَوقدٍ نائماً، سمعت همهمةً فيه، بداخله، فاقتربت منه مذعورة متســـلّحةً بمـــا يكفي من شجاعة الفضول، فإذا بـــي أسمع حديث عقله مع قلبه، كان سائلاً إيّاه: من أنت يا صاح؟ يَشْغَلُني حالك، أراك دوماً من الأعلى تَنقَبِضُ وتَجتهـــد، وأراك من الجنبِ وقتَ الراحةِ تحلمُ وترتقب؟

القلب: أنا القلب، أنا الكرةُ الدمويةُ الصغيرة، التي تماثل كرتنا الأرضية العجيبة، هي تحمل جسدي وأبناء جنسي في أرجائها، وأحمل أنا همومها وأجوب فيها في أرجائي.

العقل: ويحك! ما لك ولها؟

القلب: وكيف لا؟ ألا إنّ من مشاعري ما يجوب في هوائي يتقلب فيه مـــن مرتفعٍ لمنخفض فيرتفع له الخُلْقُ البشريّ وينخفض، ومنها ما يسبح في دمائي فتراه يوماً قريباً من شواطئي فنلامسه ونلاطفه، وتراه يوماً خاملاً في أعمـــاقي فنـــذكره ونتحسره، ومنها ما يُدفن في جسدي القلبيّ أبديّاً كنـــزاً دوماً نستشعره.

العقل: أنت من يقولون عنه: إنّ منه لأنواع؟

القلب: نعم، هناك مني المُحِب، المُحِب مني ذاك الذي فقد سيطرته على لجامـــه فانطلق فرساً جسورةً نحو بحار الشوق لتَسُد ظمأها مِمّن تُحب، هو مني ذاك الأســـد الذي يفترس الوقت والحَدَث لإشباعِ نَهمه العشقي، تراه يزأر طارداً عداد الزمن منتحباً أيامه المفُتَرَسَة. ألم تَصِلكَ يوماً رسائلٌ هوجاءَ تُحارب منك المنطق؟ ألم تُعَطّلـــكَ مِـــن أَجل بضعٍ من أمَل؟ ألم تُسَيِرُكَ على أشواكٍ ذاتِ ألم؟ ألم تَقُدكَ نَحو نارٍ ذاتِ لهب؟

وأكمل قائلاً: ومني الفضوليّ، الفضوليّ مني ذاك الذي رَبط عُنقه في خاصـــرة الآخرين بحبلٍ من الإدمان، يجرّونه بكل اتجاه، فارغٌ من المشاعر وحيدٌ سقيمٌ، إذ أنه أسْكَر نفسه بشرابٍ من مشاعر الغير، وتعشّى على أخبارهم كعشاءٍ أخير، هو مني من فقد حياته بل وفقد أيضاً حرمانها، تراه يموت ويحيا كل يوم، ألبس نفسه البؤس ذاك المسكين.

ومنّي اللامبالي أيضاً، واللامبالي منّي ذاك الذي رَسَمَ من عِظامِ الإهمال وجبةً لمشاعره، تراه فقد شهيته منتظراً بَعث عظامهِ من مَرقدها حيةً لعله يقتاها يوماً ما، خاليةٌ حجراته يسودها سَواد الفراغ، قتل رغباته ووواراها الزمان.

العقل: أتتخلق بأخلاق؟

القلب: نعم، إنّ منّا الراضي، الراضي منا ذاك الذي يُزهِر جمالاً بالحبِ ويتجاوز الخطأ بالود، ومنا الحاقد الذي يَسّوَدُ بالكره ويرتدي العزلة على الفور.

العقل: أتمتلك الحواس؟

القلب: كل قلبٍ منا خُلِقَ لمخلوق مُختلف وباختلاف الخلائق تختلف حواسنا، فبتنا نحن مَعشر القلوب بصفاتٍ فريدة، فإنّ منّا من يعشق جهراً ويدعو لحبه جهرياً، وإنّ منا من يهوى بصمتٍ ويستتر عنه بصورة سِرية، إنّ منا مَنْ يسمع مِنْ مكالمة العيون الصامتة ومنا أيضاً من فَقَد سمعه عن حناجر المهمومين البائسة.

العقل: تتفوق قدراتك على أبعادك!

القلب: سبحان الله، وكأنّه خَلَقَ في هذه الكرة الرقيقة التي الآن تجاورك حجراتٍ أربع لعلها تُجسد مناخاً للفصول الجوية الأرضية، فخريفي يبرزُ في خلافٍ أو عنادٍ أو كبرياء، وشتائي يكمن في موتٍ أو وداعٍ أو فراق، ربيعي يستقرُ في محبةٍ أو مآخاةٍ أو مصادقة، ويبيت صيفي في اعتيادٍ أو روتينٍ أو مسايرة.

أتساءل: ما باله هذا الإنسان؟ فأوقات الفصول في قلبه محكومة بيديه، فأنا القلبُ قلبه، فليحطّم جدراني موحداً حجراتي الأربع عرشاً يُسكِنُ حُبَ الله فيه حصراً، وبه يدم له الجوّ فيّ ربيعاً وفي حياته سعيداً، حصيناً، أميناً، منيعاً من كل شرٍ مليئاً بكل ود.

أيها العقل: ما القلبُ من الروح إلاّ كحجر الرشيدِ من الهيروغليفية، لن تتمكن من فك شيفرات الروح العظيمة وما احتوت من مشاعر وآمال إلاّ بافتكاك رموزه الفريدة.

القلب هبةٌ ربانيةٌ للبشر، القلبُ مَذبحٌ للوحدة وقِبلةٌ للمشاعر ومنصةٌ لتتويج العشاق، ومن هنا أقول: ما أجمل أن يهب الإنسان قلبه لإنسان آخر!

قطعاً لقد أسكنَ الآخرَ قلبه داراً للبقاء.

ثم سأل القلب العقلَ متعقلاً: وأنت؟ من أنت؟..

المُقتَطَفَة السادسة ..

على خِلافْ

على خِلاف ..

كنت وموسى نطالع الخلافات ما بيننا نحن البشر، كما يطالع الناسُ أخبار الطقس في صحفنا. في بلادنا لا تمكّنك الصحف إلا أن تستشعر الطَقسَ أو أن ترى كماً من الإعلانات.

بالنسبة للإعلانات، لا حاجة لي برؤية الباهر من ممتلكات المعارض، ولا بمن يَمُنُّ عليّ بشرح قيمة الجديد من منتجاته، فكل المنتجات في الصحف حديثة التصنيع، قيّمةُ الخدمات وزهيدةُ الأسعار، إلاّ أنّ الواقع يقول إنّ التجربة خير برهان، والمنتج عن نفسه عليه أن يقول ولا داعي للصحف لسماع ما عنه تقول، كفوا عبثكم عن الأشجار فلولا أموالكم الزائدة ما قُتِلَت وما صارت أوراقها للحاوية.

"أجهزة التليفزيون والإذاعة والسينما وصفحات المجلات والجرائد تتبارى على شيء واحد خطير هو سرقة الإنسان"..

مصطفى محمود ..

أما الطقس، فكم هي مفيدةٌ نشرته؛ فالطقس مقدمةُ أي حوار مع أي غريبٍ عن حياتك، ولأني أعشق محادثة الغريب لا بد لي من الطقسِ والعلمِ الحديث، فالقليل من علم الطقس كفيلٌ بقلب الجلسة على الجليس، وهو وحده القادر على تغير أي حديث إن احتدم.

كما نقرأ درجات الحرارة في عواصم العالم، قرأنا الخلافات على خريطة الواقع، تعجّبنا من هول الخلافات البشرية وكمّها، تراها تتشعب كتشعب الشرايين في أجسادنا، كم سخيفٌ بعضها، وكم هو وضيعٌ وضعها الآخر، كم سريعٌ انتشار

بقعها، وكم هو قذرٌ مفتعلها، معدوم الإنسانية من يريدها، من يطلقها، من يتعايش معها ومن يسري بها بين العباد.

"أو ليس الشرُ سوءَ ظنٍ متبادل؟"..

محمد كامل حسين ..

التفضيل والمقارنة هما أبوا كل خلاف، فلو قطعت المياه عن جذورها لكان وئد، ألم يقرأوا قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (13).

وكأنّ البشرية صُنّفت في تصنيفاتٍ ثم أوضِعت التصنيفات في حجرات، حجرةٌ للتصنيف وفقاً للمال، وحجرة للتصنيف وفقاً للجاه، حجرة للعلم وحجرة للخير.

وفي كل يوم يأتينا نختار أكرمنا من تصنيفِ حجرةٍ من بين الحجرات، ففي يومٍ اختار جاهلنا أكرمنا من حجرة الجاه، وفي يوم آخر اختار عالِمنا أكرمنا من حجرة العلم.

وسيأتي يوم من الأيام ومن بين الحجرات، يختار ربنا حجرة التقوى، فيختار أكرمنا منها.

إنه معيار جديدٌ ووجد من القدير، شديد الحدة بليغ الدقة، إنه معيار الله العليم، إنه معيار الله الخبير.

"التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل، والإستعداد ليوم الرحيل"..

الإمام علي كرّم الله وجهه ..

نظرت للحيوانات بدايةً، إذ أنّ لا عراك يحدث بينها إلاّ لإمتلاك نوعٍ من الغذاء أو لخطف حب من أنثى، أمّا البشر فتعدّوا خلافات الحيوان وتفوقوا عليه وأضافوا العراك بأسبابٍ جدد وأسماء وشخصيات أُخر.

أما الأسباب فتعددت، كالعقيدة مثلاً؛ تراهم يحاسبون بعضهم البعض لاعبين دور الآله، يدخلون الناس جِنان قُربهم وينفونهم لجحيم بُعدهم، فمن آمن كمثل إيمانهم وجب له القربان، ومن كفر بما لم يكفروا به وجبت عليه القطيعة واللاغفران.

عذراً منك يا من ظننت أنك المثالي بالعقيدة، فالبعض يرونك كالفقاعة ذات شكل ثابت، إلاّ أن مداعبة شوكة كفيلة بفقئك، قُربك عنا لا يعنينا وبعدك عنا يغنينا، اصرف نفسك عنا هذا جلّ ما يرضينا.

كحامل لثياب الناس يغسلها

وثوبه غارق في الرجس والنجس

الشافعي ..

كالقدر مثلا، فكيف للقدر أن يخطّ نجاحاً فوق نجاحهم؟ فمن منَّ الله عليه بنجاحٍ دنيوي يفوق ما حظوا به، أصابته لعنتهم، ومن أصابه فشلٌ يفوق فشلهم أصابته رحمتهم، تخالهم غزلاناً مع الأقل، وتراهم ذئاباً مع الأَجّل.

عذراً منك أيها المعترض على القدر، عجزك عن قراءة حكمة الله لا يحرمنا الفرحة، وشماتتك بالأقدار الصعبة لا تزيدنا الحسرة، لا نريد منك إلا أن تُدير لنا وجهك وللأمام بلا رجعة.

"من اشتغل بنفسه شغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس"..

أبو سليمان الداراني ..

أما الأسماء فتعددت، كالوسطية مثلاً؛ فمن زكّى أو قام وصلى، أكثر بقليل منه فهو المتشدد، ومن ضَحّى وكَسّلَ واستغنى أقل بقليلٍ منه فهو المهمل المترهل، يضعون الإيمان على خصورهم فما كان على يسارهم سَقَط وما كان على يمينهم أسقَط.

عذراً يا من ظننت أنك الأوسط، وجودي على يسارك يعني وجودك على يميني فإن كنت أنا الساقط فأنت حتماً الأسقط.

كفى بالعلم شرفاً أن يدّعيه من لا يحسنه

كفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه من هو فيه

الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ..

كالعنصرية مثلا؛ "دعوها فإنها منتنة" رواه البخاري قوله محمد صلى الله عليه وسلم..

ما العنصرية إلا كوجبة دسمة وُهِبَت قوة الخلود في الأرض، ولكنها لفرط سذاجتها حمقاء لا تعلم سر الوجود، فالخلود لا يكون إلا لله المعبود، وأما الخلود لغير المعبود فهو ابتلاءٌ بل وموبوء.

وبعد برهة وبرهة بان فسادُ تلك الدسمة، ولكنّ دسمها ما زال يُتداول بيني وبينكم، وبيننا وبينهم، وبينهم وبينهم. وما زالت تُتَداول، وما زالت تُتَداول فاستحقت هي وصفها أنها منتنة فلا نُصبِحنَّ نحن على وصفٍ أننا منتنون.

وكالديمقراطية مثلاً؛ فإن تماشت نتائجها وإيّاي فهي العدل المطلق، وإلا كانت بالغش قد قامت بل وبالحقد المبرم، رغم سوئها تراها مطمع لكل شعب.

لا أدري كيف للشعوب أن تَستَشير في المأكل والمشرب، في العلاج وفي القضاء ويفضلون الديمقراطية عليها في الحكم، كيف لهم أن يجعلوا للجاهل وللمتآمر وللحاقد حقاً في تحديد مصائر الأمة!

وهناك من الشخصيات من تولدُ الخلافات من رحمها ومن التعايش معها والتعاملِ وإياها، كالإمعة مثلاً؛ وللإمعة أشكال كثيرة أشهرها الثنائي (الزوج والزوجة) الإمعة.

أمّا الزوج الإمعة، فهو من يتبع نزوات قلب امرأته المضطربة، إذ يصالح من أرادت إن هدأت نيران نفسها، ويثور كالثور إن فارت حمم قلبها، تراه يقتل رجولته من أجل زَيف دموع أفعاه، تسمعه يصف نفسه بالحشرة ليضعها كما وضع الناس أُنثاه.

وأمّا الزوجة الإمعة، فهي من فقدت تاريخها كله إرضاءً لجشع رجلها، تراها تُنكِرُ الأب والأهل وحبها الأول "إن وجد"، بل وأهله وأصدقاءه وما امتدت له من يد خيرٍ وإكرامٍ وإحسان، تراها بلا طموح بل برائحة آراء الزوج تفوح.

تساءلنا: كيف تحدث القطيعة بين اثنين متحابين منذ زمن؟ كيف للقطيعة أن تطعن صداقتهما وتنكل بذكرياتهما، ما السبب؟

قال موسى: الأحقاد الدفينة.

أمّا أنا فقلت: المرأة الرجيمة.

قال: قال لي والدي ذات يوم: يا بني لا تستثمر مشاعرك في من هو أقل أو أعلى منك "دنيوياً" بكثير، إذ أن السنين ستتكفل بلصق الصداقة على مبدأ الأعلى والأسفل، وإن تم قلب الطاولة بيد القدر على المتصادقين، ترى الحال الجديد يقتل الرجل القويم، ولو وجد الدين لما كان هذا الوضع الرديء قد أقيم. الأحقاد الدفينة تكمن في تفوق الآخر على من كان متفوقاً عليه، فالمتفوق القديم اعتاد تفوقه ومصادقة من هو أقل منه، ليس خبثاً منه بل هو نقصٌ في إيمانه.

لذا تجد أشد المُحاربين هم من قد سبقوا لمجدٍ ما، فترى الكاتب الكبير يستخف بالكاتب الصغير من بعد ما أظهر له اعجاباً ببدايته، وترى المغنية الشهيرة تزدري المغنية الصغيرة من بعد ما أظهرت لها إندهاشاً بانطلاقتها.

أما أنا فقلت: أما المرأةُ الرجيمة فتراها بخفة غزالةٍ حمّالةٍ للحطب، تنشر حطبها بين الناس وتشعله بفتيل لسانها، تبث سمومها كالأفعى بجسد فيلٍ أرعن، تدمر كل ما يطأه لسانها. اختارت أجساد الحيوانات وأسكنتها أفكار الشيطان، تراها ذات رائحة قذرة تفوح مع قهقهتها الوقحة.

سألني: بما أنك أقحمت المرأة، متى تصل المرأة لحالة الحقد القصوى؟

سألته: العلنية أم السرية؟

قال: أَومنها السرية والعلنية؟ العلنية!؟

قلت: عندما تدفع المرأة عُمرها ثمناً لفاتورة رجلٍ، كانت قد قطّعت أهله بسكين لسانها، عندما بات سِفيه مجالسها معيلَ أبنائها، عندما باتت مادة سخريتها قدوةً لأبنائها.

تراها كالطاعون تطهّر بالحقد العلني كل ما داس لسانها عليه مسبقاً بالإثم، إلاّ أنها لا تلام، فهي القاتل وهي المقتول، حتى ولو كانت تدافع عن فعلها بفعل أقبح. وأما السرية فهي تلك الفتاة التي شهدت القصة العلنية إلا أنها صمتت وصممت إعادة القصة الأولى.

أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما..

وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما..

الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه..

تساءلت وموسى أين تكمن أخطر الخلافات؟

فوجدنا خلافات بين أبناء العمومية هي الأخطر، إذ أن من لا يملك أعماماً قد لا يملك من الناس أحد.

فكيف حلّه هذا الخلاف مع العم؟

كان رأي موسى الأهم بنظري حيث قال: العم كلمة تُقرأ وأراها رمزاً عليه أن يُفَك، فالعم رمزٌ من حرفين وبكل حرفٍ كلمة، فالعين جاءت من "عميق" والميم جاءت من "المعادلة"، وبه فإن العم هو عميق المعادلة، فأصل العلاقة بين العم والعم "أخوة"، وبه فإن ابن العم مع ابن العم "أخوة" في "أخوة".

معادلتنا هذه معادلة عميقة تطفي علينا أقوى علاقة، فالإشتراك بالإسم يوجب منّا علينا ضريبة، ضريبتنا هنا مختلفة فهي تُضاعِف مفهوم الأخوة.

فالعم صورةٌ من صور الأب وبها يستحق صورةً من صور البر وتنتج عنها صورةٌ من صور الأخوة بين أبنائهم، لا أدري لعل قوامة الرجل على المرأة أفضت لسيادة دمه على دمها في أجسادنا! دمُ الأب دمٌ سائد، فرابطة دمائه أقوى وأعمق، فهو الأقرب من ناحية النوع والأسخن من ناحية الحَمِّية، والأكرم من ناحية المبادرة.

وإن رُبطت عقدة الخلاف على رابطة الدم فَلتَقُل: يا عم، لنا عليك حق النصيحة ولك علينا حق البر، يا ابن العم خلافي معك خطيئة وحبي لك فضيلة، ضحكتك عندي آمال، وعبوسك عندي أحزان، جريان دمي في جسدك

فخرٌ عندي من كل صَوب، وسريان مالك في حياتك عندي أمان لي من كـــل كرب.

العم رمزٌ بزمرة رموز، أَقرأه عميق المعادلة التي قصدت الوحدة للأبد والكمال بفخر، والحب بلا مصالح.

وجدنا كل الخلافات تصب في بحيرة الظلم، ألا يعلمون قوله تعالى للمظلـــوم "وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حينً"، حديث قدسي.

قال صلى الله عليه وسلم "اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام".

قسماً سيأتي ذاك الحين، ليس مني بل من رب العـــالمين، وإلى أن يـــأتي ذاك الحين، كم ظَلمنا حيناً من بعد حين مستيقنين بالأفكار الواهنة، مدججين بالحجج الواهية، مؤمنين بحقنا بظلمهم، كافرين بحقهم بنصره؟

والظلم يوّلد الغضب، الغضب! تلك الحمم النارية التي تنشب في أجســـادنا الطينية نتيجة قولٍ لا نتيجة قائل، نتيجة فعلٍ لا نتيجة فاعل.

فلنتعامل معها كما تتعامل الأرض مع الحمم بباطنها، أَيُصـــدقُ أحـــدكم أن تخفي هذه البحار والمحيطات حمم النيران تحتها؟

"اتقوا ساعة الغضب فإنها ساعة عمياء، فإنها عمياء بـــلا عقـــارب ولا أقارب"..

أحد الأدباء ..

إلا أنّ للتحمل حدوداً، حتى الأرض تراها بالبراكين تضوج فتفور، لا تظْلُم! وإن ظلمت لا تفجر، وإن فجرتَ لا تلُم أحداً!

"أوثق غضبك بسلسلة الحلم؛ فإنه كلبٌ إن أفلت أتلف"..

ابن القيم ..

قال لي والدي ذات مرة: لا تُغضب ثلاث، الكاتب والشاعر وأهـــل الابـــن البار، فالمحارب مثلاً يَسكُنُ بكسر سيفه، فالسيف المكسور لا يمكنـــه اســـتكمال

القتال، أمّا القلم إن كسرته يكتب بل ويصبح اثنين. والشاعر لن يتعب لسانه، فمضغه للطعام أعدّه خير إعداد لوليمة الحرب، فوجبة الغذاء عنده بالآلاف من التمارين. وأمّا أهل الابن البار لا تقرب فجرحهم كفرٌ بنظر ابنهم.. ذاك البار.

وما أشبه اقتناء رضا واحد من البشر بالإمساك بطير من الطيور، فمهما سعيت للقبض على إحداها بجهدٍ فقدت آخر، كذلك رضا البشر لن تجمع اثنين في روحك ما دامت روحك في جسد واحد.

وما أكثر أسراب الرضا على عكس أسراب الطيور، فمهما اجتمعت الطيور في سربٍ لا يجتمع رضا مع آخر، حتى الرضا نفسه تراه يغير وجهته كما تغير الأسراب وجهاتها في الفصول.

"رضا الناس غاية لا تُدرك، وليس إلى السلامة من ألسنة الخلق سبيل، فعليك بما ينفعك فلزمه" ..

الشافعي ..

لكل صوابٍ نظرةٌ من زاوية الخطأ، ولكل صلاةٍ رأيٌ من البعض بالرياء، ولكل صدقة سرية إشاعة من البعض بأنها جهرية، فكمال السمعة من كمال البشر، وإنهم لن يصلوه ماداموا في بشريتهم يتجسدون.

دائماً ما يتغنى موسى بقصيدة لم يعرف قائلها تقول:

ضَحِكتُ، فقالوا ألا تحتشم

بَكَيتُ فقالوا ألا تبتسم

بَسُمتُ، فقالوا يرائي بها

عَبستُ فقالوا بدا ما كتم

صَمَتُّ، فقالوا كليل اللسان

نَطقتُ فقالوا كثير الكلم

حَلُمـــتُ، فقـــالوا صـــنيع الجبـــان

ولـــــو كـــــان مُقتـــــدرا لأنـــــتقم

بَسَـــلتُ، فقـــالوا لَطـــيشٌ بـــه

وماكـــــان مجترئـــــا لـــــو حكـــــم

يقولـــــون شـــــذّ إذا قلـــــت لا

وإمّعـــــــة حـــــــين وافقتـــــــهم

فأيقنـــــــت أني مهمـــــــا أردت

رضـــــا النـــــاس لابـــــد مـــــن أن أذمّ

على البشر تداول الغفران كعملةٍ فيما بينهم لشراء قلوب بعضهم البعض، كما يتداولون الذهب والفضة لشراء تراب من الأرض، إلاّ أن الغفران أثمنُ وأشد ندرة، فإن كان الألماس أثمن المعادن، قطعاً الغفران أثمن المشاعر.

في الغفران تفوقٌ على التسامح كما في الذهب تفوقٌ على الفضة، فإن أردت الشراء إدفع أكثر بالقيمة الأثمن، فكلما جاد كرمك جاد به ما ابتعت من المتاع.

لا يعرف الغفران والتسامح إلا من جاور من فيه بغضٌ ونقصان، صبرك على مجاورة الناقصِ كمال، وقُربك من الحاقد محبة، وتحمّلك للئيمِ كرم.

"الأصل في التسامح أن تستطيع الحياة مع قـوم تعـرف يقينـاً أنهـم خاطئون"..

محمد كامل حسين ..

المُقتَطَفَة السابعة ..

وأَذِّن بالحَج

وأَذِّن بالحَج ..

ها هو آذانُ الحجِ يصدحُ من بعيد، بزغَ فجره وهلَّ هلاله من جديد، ها هو قد عادَ لعلّه يعوّضنا عن بعض ما فات.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (27).

"يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام قال: يا رب، وكيف أبلُغ الناسَ وصوتي لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ" ..

تذكرت رحلتنا الجميلةَ للأراضي المقدسة، كانت بعمرةٍ وليست بحجة، كنا فيها أنا وموسى اثنان بلا ثالث، كانت رحلةً طويلةً من ناحية الطريق، عظيمةً بالفائدة، قصيرةً بما فيها من المتعة، مليئة بمعاني الصداقة، متخمة بالإيمانيات، وكأننا امتطينا جسراً عبر بنا من ههنا إلى هناك، من وحل الدنيا لعبق الآخرة، من فن العمار لسحر الأمان.

داوم على سماع سورة مريم ذهاباً وإياباً، أجزم لكم أنه حفظها أو كاد أن، قلت له: ما بالك ما فتئتها، تسمعها لسد ظمأ لا تَبرَأ منه؟

قال: أحبها، فيها سحرٌ غامض، فكما لكل إنسانٍ مفتاحٌ من الكلمات، مفتاح قلبي يكمن ههنا.

أتساءل: أتراه يعقد العزم على أن يسمي ابنته مريم من فرط ما سمعها مثلاً؟ أم أنه يعقد العزم بأن يسمي أبناءه زكريا ويعقوب، يحيى وهارون، عيسى وإبراهيم، إسحق وموسى، إسماعيل وإدريس، نوح وإسرائيل على الترتيب كما وردوا فيها؟

أتبع قائلاً: في كل مرة أسمعها تستوقفني الآية الكريمة القائلة: ﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (28)، كم هو مقدار الشَرَفِ الذي

أحاطت نفسها وأُحيطت به! كم هو عظيمٌ جدار العفاف هذا! كم صعبٌ اختراقه من حصنٍ منيع!

لم نُرزق رحلة الحج بعد، إلا أني سألته في الطريق محتاراً: ماذا تقول في الحج؟

قال: لغوياً الحَجُّ: أي القصد بالزيارة، وإنّي أراه هنا القصدَ بالمعركة، هنا المعركةُ وإن كانت في الأشهر الحرم فهي مشروعة، فهي بين جيشين متكافئين كلما زاد الأول، الثاني به زاد، الأول هنا حجاجٌ قصدوا القتال، والثاني شهواتٌ قصدت البقاء. فإن دقت الساعة وصدح النداء، ينطلقُ زحفٌ كبيرٌ للبيت العتيق. رجال وعلى كل ضامر، زحفٌ هدفه التطهير قد جاء من كل فَجٍّ عميق. هنا التطهير للجيشٍ فرسانه شهواتٌ سلاحها المتعة، ورداؤها سترٌ في الدنيا، والآخر حجاجٌ سلاحهم الدعاء ودروعهم إزارٌ ورداء.

قلت: ثم ماذا؟ ماذا تقول في الطواف مثلاً؟

قال: هناك في الميدان كعبةٌ وإنها لَمُفتَرَسَةٌ من كل عين، فكل عينٍ تسعى لاقتناص نظرة، ويالله العجب! فإن اقتنصتها عينٌ منا ألقت هي بشباكها علينا، فتفترس هي منا المُفتَرِس، تضمّنا نحوها بقوة، افتراسها هذا آسرٌ للجسد ومروضٌ للروح، تجذبنا ونجذبها، إنّا لنتجاذب؛ التجاذب هذا غير متكافئ رغم أنّ حبنا لها بلا حدود هيبتها جاءت من الله المعبود، ويتَحول الجذب لقوة دوران يسمى الطواف، وأستشعره أنا دوران، وكأنّ الدوران هذا بهدف الإطاعة بالجسد لله، كما الإطاحة بالدنيا من النفس لوجه الله، وتثبت هي وحولها نحن ندور، وبعد دوراتٍ سبع تلقينا هناك.

قلت: هناك؟!

قال: نعم، ثم تلقينا هناك، الهناك الآن مسعى، فهي "هاجر" سعت نحو الماء إرضاءً للجسد، وإنّا كمثلها لنبحث عن ماءٍ إلا أنه إرضاء للروح.

ماؤها المنشود يبلى ويبلى منّا الجسد، وماؤنا المنشود مسعى ويسعى له البشر، المسعى هذا فيه إرضاءٌ للروح، فهو رضى يسقي غنى، غنىً يُبلِغ حباً، حبٌ منبعه من الله.

قلت: و لم تُراها سبعاً؟

قال: لا أدري، أيكون المقصود بالسبعة عدد الأيام التي نعيش ونعشق الدنيا من كل أسبوع؟ أم عدد السماوات والأرض التي تشهد علينا كل فعلٍ ومفعول؟

قلت: وهناك أيضاً جمراتٌ تُرمى.

قال: وإنّي أراها خطايا تلقى، وكأنّا بالرمي هذا نلقي بالخطايا بعيداً، فينتفض منّا الجسد بكل رمية فيرفضها وكأنه لها ليس بمقترف.

قلت: ويُكبِّرون.

قال: لعلّه إعلاءٌ لصوت الروح عن طريق اللسان، فلا أرى فينا ما لا يتنفض بكل رمية، إنه كمال الإنتفاض وشمولية التغيير، وكأنّ في الجمرات رسالةٌ للنفس أنّا نحن الروح والجسد ننتفض على كل منكرٍ حرام، كرسائل الشعوب النظيفة لقائدها أنها تنتفض على كل كسادٍ وفساد.

قلت: و لم الحج مرة واحدة في العمر لا أكثر يا ترى؟

قال: لا أدري، لعلّ هذا سؤالٌ يجيب عن نفسه بنفسه قائلاً: إن قَتَل الحجاجُ الشهواتِ هنا فمن يحييها إلاّ إن أراد الحجاج؟ وإن قَتَلَت الشهواتُ الحجاجَ هنا فمن يحييهم إلاّ إن أراد رَبُّ الحجاج؟

قلت: أتدري لم الحجّ في أيام وليس في أقل من ذلك يا ترى؟

قال: لا أدري، هي معركة ضاريةٌ كلها كرٌ وفر، وإن فاز الحاج بها تحصّن، وللجنة إن شاء الله تجهّز، وإن خسر بها تحسّر، وبالحسرة تقيّد، إنها معركةٌ قدسية والتطهير فيها بنَّية أبدية، فلا بد من الأمان بأنّ التطهير قد كان، تطهيرٌ به نؤمن ونؤكد بأنّا للمُنكر نُنكر، وللمعروف نُعلن أنّا له المُعلِن.

قلت: و لم هو في عدة شعائر وننتقل به من بين الأماكن يا ترى؟

قال: لا أدري، فالحرب هنا صعبة المراس، وللخدعة هي في أشدّ الإحتياج، فلنقتل الشهوات بأكثر من شعيرة، ولنقتلها بأكثر من طريقة، فلنقتلها أكثر من مرة، ولتشهدها الأماكن أكثر من كَرَّة، فالقتل هنا رياءٌ أُجيز أمامَ الأرض وإجازته جاءت من السماء، فلنقتلها طوفاناً وسعياً، رمياً وحلقاً، فلننحرها نحراً وكأنها من الهدي كانت جزءاً.

قلت: وإنّا لنتجرد من ثيابنا في البداية ومن شعورنا في النهاية، أتساءل لَمَ يا ترى؟

قال: لا أدري ولكني أراهما مترادفين وإن كانا بالزمن متلاحقين، فالشُعُور كالملابس هي غطاءٌ للرأس كتلك للجسد.

فأمّا الأول فهو الأسهل، فثيابنا هذه شهدت منا الخطيئة ورأت منا المنكر وأحيانا الرذيلة، إذن فهي معنا شريكٌ في الجريمة، فلا بد من التطهير منها بدايةً، ولكنّ عودتها حق، فإن عادت وجب التطهير الآخر وكان الخيار على غطاء الرأس.

صدقاً هو الأصعب وأثره أدوم، ولكن فيه من سهولة، صعوبته بالتخلي عن بضعٍ من الجمال الدنيوي وسهولته بالالتحاق بالدعوات الثلاث من النبي. أثره ذكرى بكل نظرة منك لنفسك تقول فيها إنك أنت مع الله المنتصر، فمع الشهوات أنت الآن تقتتل، وإنك عليها بإذنه لتنتصر. وذكرى من العباد بكل نظرة عليك يقولون فيها، اللهم ارزقنا كما رزقته، فقد عاد كما ولدته أمه، قال صلى الله عليه وسلم (من حج لله فلم يرفث و لم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه)، رواه مسلم.

وختم حديثه قائلاً: والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة، وإنّي أراه جامعاً، ففيه كل صورِ البذل والعطاء، وفيه ترى الحاج يدفع بقلبه قائلاً إنّ نسكي لله وحده، ومن وقته قائلاً إنّ وقتي لله كله. ومن ماله قائلاً إنّ مالي من الله رب العالمين، ومن راحته قائلاً إنّ جسدي كله طاعة لله أحسن الخالقين، وكأنّ بَذلَ الحاج من كل الأصناف دعاءً يقول فيه: اللهم إن هذه كل ما أملك من شهواتٍ أنحرها هنا مع الهدي فاقبلها مني، واجزيني بها جزاءً كالجنة، الجنة كالتي ذكرتها لنا في كتابك في سورة محمد **﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾** (15).

كم سيكونوا سعداءً عندما تشرق الأرض بنور ربنا؟ حيث قال تعالى في سورة الزمر **﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾** (69).

فالإشراق فعلٌ يحملِ النور، فيه رويّةٌ وهدوء، فيه سكينةٌ وسكون، ولكنه هنا وبهكذا نورٍ تَفَجّر فهو لم يعد يستطيع، تفجّرَ فلم يعد بالإمكان ما كان بالأمس بالإمكان. لقد فَقَدَ سكينته رغم حمله السكون، فالإشراق هنا بنور لا مثيل له، النور هنا لله الذي لا شريك له، به تفجّر الأشراقُ صعقاً منبثقاً منه زمرُ إشراق، ففي كل إشراقٍ زمرُ نورٍ، ولكلِ نورٍ زمرُ إشراق، فهنيئاً للأرض بزمر الإشراقِ وهنيئاً لها بزمرِ النور.

الحجُ حيثُ الغني الفقير والفقير الغني، حيث السيّد العبد والعبد السيّد، حيث الناس سواسية، يتتابعون على مناسكهم كما يتتابع الأبناء وراء أمهاتم، كلهم أمـــلٌ بالمغفرة وألمٌ من المعصية، مطامعهم في الجنان ومخاوفهم من النيران.

كم سيكونون تعساءً الذين كذبوا؟ الذين قال تعالى فيهم في سورة الأعراف **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ...﴾** (40).

وكأنّهم بـــ "كذّبوا" أضاعوا وآيات الرحمن هنا المفتاح، ولشـــدة حمقهـــم استكبروا وهم باستكبارهم أكثروا، أكثروا باستهتار، فبـــالأولى غلّقـــوا أبـــواب السماوات، وبالثانية نفوا عن أنفسهم دخول الجَنّات.

ولكن، لعلهم عرفوا أملاً!..

قد همّوا للجمل لعلّه يدخل في سمِّ الخياط!

فمن قِبَلِ العرف ومن على سبيل الأعراف، وبالعقول وقبل وقوع الأقـــدار، وبلا تكذيب وبلا استكبار، هل يدخل الجملُ في سَمّ الخياط؟

فُقِدَت كَلِماتُ هذه الصفحة مِنْ بَين المقتطفات ..

رسالة إلى الله (4/1)

(الأسبوع الأول)

في سبتِ أسبوعي الأول، وإذا بـــي أُمسك بقلمي أتفحصه تفحص طبيـــبٍ لمريضه السقيم، ففكرت فيه وكتبت به:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه قلم، يخط لي سطراً ورسم، خطوطـــه أفعـــالٌ بحســـنات، ورسماته أحلام بجنات، حُبُكَ يا إلهي كُتِبَ بقلمٍ لا يزول حبره، يرسمُ فناً لا أريـــد غيره، أحبّك ربـــي..

في الأحد خرجت من منـــزلي باكراً، تلقفتني هَبَّةُ رياحٍ اســـقتني إنتعاشـــاً لم أَحْمَل بعده ذاك اليوم، غلفتني بهالةٍ من الرضا أكسبتني قدرةً أن أقول فقلت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه هالة، هالةٌ تحيط مني الجسدَ تكسبه المناعـــة، تُقَـــوّض فيَّ اللسان تكسبة الرقابة، تُطَوق فيَّ الروح تمنعها الإبتعاد تكسبها شغفَ اللقاء، شغف لقائك، أحبّك ربـــي..

وفي الإثنين أفقت على زلزالٍ من على سريري غذته يدا صديقي بقوةٍ قـــائلاً: لقد تأخرت، فشكرته على زلزاله وأتبعت فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه زلزال، يُصَّفي في نفسي كل مرضٍ موبوء، ويذرُ فيها كـــل حبٍ إليك موصول، فبكل ما تُحبّ سأتصل وبكل ما ترضى سأتصف، أحبّـــك ربـــي..

في الثلاثاء، أمسكت بأحد الكتب القيّمة من مكتبة موسى الثمينة لأقرأه، فرد قلمي فكتب عليه:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه كتاب، في كل صفحةٍ فيه فصلٌ من رضاك علي، ولكـــل فصلٍ فيه كتاب شكرٍ مني إليك، أقرأه ليكتبني، يقرأني لينجيني، وكلما شددت عليه اشتد لي، أحبّك ربـــي..

وفي الأربعاء، أثناء عملي نبّهني صديقي لما في العمل من عبادةٍ وإفادة، وكـــم هو بحاجةٍ لإتقان وإجادة، فتوقفت عنه وكتبت منه:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه عَمَل، به أجتهد فأرتقي بمكـــانتي، عليـــه أُكمـــل وأبـــني مراتبـــي، أنجز به ما شِئت لي من الحسنات، يبني فيَّ كل جميلٍ من الخيرات، حبّك يا إلهي عملٌ أَشغلت به وقتي ووهبت له عقلي وقلبـــي فأسكنني في جسدي جنتي، أحبّك ربـــي..

في الخميس باغتني صديقي بنداءٍ من خلف شجرةٍ كنت استظل بها لدقيقـــة، فأثار فيّ فكرةً أن أكتب فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه نداء، نداءٌ خفي، دوماً أستشعر كلامه الندي، يخبرني عـــن نفسي، يطوّق كينونتي يكشف أسرارها، يُهديني ما هو لي، يجنّبني ما هـــو عَلـــيّ، أحبّك ربـــي..

وفي الجمعة كان احتفال صديقي بفوزه بمسابقة كان قد اشترك بها، فطوقـــوه بقلادةٍ كجائزة، فلما رأيتها أوحت إليّ فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه قلادة، كلما انحنيت التقاطاً لمنكرٍ تدلت وبانـــت، لمعـــت فقالت: إنك أنت من ارتديني فخراً فرُده عنك ففيه تلقى قذراً، وكلما اســـتقمتُ لمعروفٍ اهتزت وتباهت، أشَّعت فَشَدت: إنك أنت من خُلِقَ له فاسعى وأحســـن، فبه تلقى المحسن، أحبّك ربـــي..

المُقتَطَفَة الثامنة ..

وُلِدَ في قَلبي مَولود

وُلِدَ في قَلبي مَولود ..

كعادتي استيقظت من وجبة نومٍ لذيذةٍ متخماً، لا يذهب بثملها إلاّ ساعي المنبهات الأسود مع العديد من تمارين الإسترخاء، وأحياناً ما تكون مصحوبةً بما يسد نقصي من رفع أثقال التأملات لبضعٍ من الوقت، وكأنّ جسدي يطالبني بالراحة من بعد إتقانه لفنون النوم العميق، فساعات نومه الطويلة أرهقته من شدة التركيز بعدّه لدقائقها.

كم هو جميلٌ ساعي المنبهات! كوب القهوة، ذاك العامل النشيط، إذ يأتيني كل صباحٍ يترجل من على مركبته البيضاءَ صاعداً إليّ يربط بزَّتَهُ الصلصالية بطرف سبابتي الأيمن معلناً بدء دوامه، فيبدأ بنفض أرتال الكسل وأكوام الخمول عن عقلي، يلقيها عنه يميناً ويساراً.

وكم أُحب مرافِقَتَه! تلك السمراء الرشيقة، وحدَهَا من تذوب فيك من أجلك، كالشمعة ساعيةً لنشرِ نور الرفاهية في كافة أنحاء جسدك، طعمها موسيقى كلفظها شوكولاتة.

وأما موسى استيقظ كعادته أيضاً مرهقاً، إلا أنّ إرهاقه كان من مناوبة بناءٍ لأحلامه، تخاله سَهِرَ نائماً يخطط لإتمام أعماله في الصباح ككل صباح، كان يؤمن بمقولة:

"من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان"..

أبو سليمان الداراني..

لا عجب أن يبدأ يومه بعنوانٍ اسمه الإنجاز، فقد أنهى شوط التفكير بامتياز، وباشر فور استفاقته بشوط الإعمار، كَمُّ الإنجاز عنده لا يقدر بالوقت ولا يحصى

بالسنين وكأن الله وهب له حياةً ليليةً أخرى غير التي عهدناها ومساءً إليها نفيض.

ما بين عاداتي وعاداته كان لي قصةُ حلمٍ أرويها وكان له مشروعُ حياة لينهضَ بتنفيذه، فأبدأ يومي برواية المنام ويبدأ هو بتدوين المهام، يشاركني بإصغائه للحُلمِ وأشاركه بأفكاري للمقبل عنده المُهِم.

بادرني السؤال: كيف كان عَرضُ الليلةِ في صالات جفونك؟ اَستَمتَعَت وِحدَتُكَ بحُلمك؟ أشربت كأس الدمع مُحَّزناً أم مُفَّرحَاً؟

المنام! تلك الحياةُ الجميلة ذات نوعٍ مختلف، إذ أنك تمتلك جسدك الأرضي وأحلامك الكونية، متسلحاً بأدعيتك المبعوثة من قَبْلُ صوب السماء. كم جميلٌ أن نرى رغبات الوعي بإمكانيات اللاوعي، حيث لا موت ولا ألم، حيث تكون الساحر رغم كونك المسحور، حيث ترى الميت والحي، حيث ترى الشجر الناطق والحجر والطير، إنه كونٌ مختلف.

قلت: كم كان حلمي مذهلاً! إذ حَلُمت بكتابة رواية كتلك التي نقرأها ما بين حين وآخر. إلا أن في الروايات نوعاً من أنواعِ العبودية إذ أنك تجد نفسك مضطراً لإنهاء ما بدأتَ طوعاً لا كراهيةً، سائراً في طريقٍ رسمها لك كاتبٌ ما، لا مهرب لك من معرفة مصير ما خطّه ذاك القلم لأحد أبطاله، والذي بات أحد أهم الشخصيات في خيالك، لا قدرة لك على مسح دموعِ الحزنِ، ولا المشاركة في صناعةِ دموعِ الفرح، درعك العجز ورمحك الأمل، هذه هي كل ما تمتلك من الأسلحة النفسية لتواجه بها نزوات ذاك الكاتب الغامض.

قد رُبطت راحةُ بالك هنا مع نهاية قصة حياة البطل هناك برابط الحرص والفضول، يسقيك يومياته بكأسٍ فيه الكثير من الشغفُ والطموح.

أمّا في روايتي كنتُ أنا الكاتب والسارد، المدبر لكونها والمتحكم ببطلها والمسيّر لأمره، فبنيت له فيها من جنتي وأطعمته من قطافها وأسقيته من أنهارها وسيولها.

تمكنت من خلق حياةٍ جميلةٍ هانئةٍ لشخصٍ اخترت أنا اسمه ولونه وتفاصيل شكله، حددت طوله ووزنه، رسمت تفاصيل ابتسامته وتدويرة حواجبه، صففت أسنانه بريشتي وأكسيتها من بياض الثلوج، رسمت حدود لحيته بلونٍ أصفرَ مذَّهب

كلون الحصاد في المروج، كتبت إيماءات وجهه، أنبته شعراً بنياً ناعماً قصيراً، زرعت جسده بالعضل، بنيت له المنازل وجلبت له حُبَ واحدةٍ من حور العين، كم ظننت أني عملت على إراحته، وكم تخيلت أني قدرت على إسعاد حضرته.

إلا أني وبعدما استعرضت كل منعطفات حياته وكافة مهامه ومنتجات أعماله، وجدته عند موته يموت ميتةً عادية، كم أغدقت عليه من العطايا إلا أنه كان إنساناً طبيعياً، لم استطع كتابة مجدٍ له ليفخر به، ولم أتمكن من خلق موهبة ليتمتع بها، لم استطع بِقِصَر نظري بناء حواجز في طريقه لإبراز المكنونات والهبات التي خلقها الله لحياته، خفت عليه من الإخفاق، وشككت بقدرتي على مساعدته.

توقف حلمي هنا فصَمَت لساني، إلا أن قلبي أكمل ثرثرته قائلاً: وحده الإبتلاء من هو قادرٌ على كشف مواطن القدرة في الجسد الإنساني عن طريق عَظَمَة الروح المبتلاة، وحده الله الذي عليه نتوكل وبه نوقن ونؤمن، تذكرت قوله تعالى في سورة التين ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (8)؟

بلى! ويحَكِ أيتها "البلى"، أتستكفين نفسك كجواب؟ أتتجرئين على هكذا استفهام لوحدك؟ ألا ترين نفسك أصغر من حمل رسالةٍ لسؤالٍ كهذا؟ رسالةٍ فحواها نعم وطبعاً، وبالتأكيد بل وقطعاً، مؤمنين موقنين، مسلمين مستسلمين، حاكمين ومحكومين.

الحياةُ بلا ابتلاء كجريدة بلا أخبار، وحده الإبتلاء من هو قادرٌ على إظهار الشق الحيواني من البشر، ووحدة القادر على كشف الشق الملائكي كرد فعلٍ على حيوانية بعض البشر، إلاّ أنّ بعض الحيوانية تكاد تكون فضيلةً إذ لو صار مثيرها لغير مُطلقها لكانت أُطلِقت شَيطانيةً لا حَيوانية، كم جميلٌ هو شعور الإحاطة بالملائكة، وكم هو الأجمل شعور الإحاطة بالحيوان حال توفر حضرة الشيطان.

ظننت المصاعب عقبات، وخلت التفاوت بين البشر مسبباً للحسرات، إلا أني وجدت المصاعب عروضاً لصفقات نجاحٍ مربحة، والتفاوت بيننا مدعاة للشكر والإيمان لا للحسد والنكران.

"إنّ الحسد في دين المسلم أسرع من الآكلة في جسده"

الحسن البصري ..

لما لا يقنع البشر بما لهم من الآلاء كما اقتنعوا بتوزيع الله لنا الأهل والأجساد؟ فلنوقن، لقد فصَّل الله لنا الحياة بتفاوت دنيوي إلا أنه بكمالٍ إلهيّ.

ولا أرى إلاّ أن أقول بلغة علم الحساب أن نتاج تكامل الرزق للإنسان الواحد قيمةٌ ثابتة. فللإنسان معادلة أكنيها بمعادلة الرزق، منها الماديّ ومنها المعنويّ، منها العقار ومنها العتاد، ومهما ارتفعت مؤشراتها أو انخفضت، فنتيجة تكاملها قيمة ثابتة على فترة بدايتها لحظة الولادة ونهايتها لحظة الوفاة، على مجموعة أفرادٍ أولها آدم وآخرها آخر أبناءه عليه السلام.

الرزق للإنسان = قيمة ثابتة..

قد يجعل الله عن طريقك صورةً لرزق أحدهم وقد يجعل الآخر صورة لأجل رزقه إليك، وقد تدفع من مالك وتلقف براً، قد تصل رحمَكَ وتتلقى حباً، قد يكون مرضكَ شفاءً لقلب آخر، قد يكون صوتك سيفاً للغير، قد تكون دمعتك حضناً لأخيك. الرزق لا يحصر بهيئة المادة أبداً، إنها من أسرار الحياة.

وحدها القناعةُ هي من تسد جوع البطن ونَهَمَ الروح، إن أتقنتها عدت حراً طليقاً، فلا داعي لارتداء قناع حب الخير للآخر، ولا داعي لدهن اللسان بمعسِّل الكلام لتنفثه دخاناً عَطِراً بوجه الآخر، تذكرت شعراً للشافعي في القناعة يقول:

رأيتُ القناعَةَ رأسَ الغنى
فصرْتُ بأذيالِها متمسِّكُ
فلا ذا يراني على بابه
ولا ذا يراني بهِ منهمِكُ
فَصِرتُ غنياً بلا درهمٍ
أمرُّ على الناسِ شبَهَ الملك

إلاّ أنّ في حياتنا لحظات أو ساعات أو حتى أيام نرى أنفسنا فيها كالأطفال أمام ما نرغب به من متع الحياة، بيد أن طفولتنا هذه لا تبرّر لنا الحسد، فالطفل يستعمل البكاء فقط، ولا يعرف سبيل الدهاء للحسد.

"لا تسكن الحكمةُ قلباً فيه ثلاث خصال: همّ الرزق، وحسد الخلق، وحب الجاه"..

يحي بن معاذ ..

قال لي والدي ذات مرة: يا بني أسدل ستائر الصدقات على منافذ كرّم الله إليك، فالإنسان يعيش في كنف نعَم ربه المحسوسة والغير محسوسة، كما نعيش في بيوتنا الملموسة، فلنسدّ نظرات الحاسدين بستائر الصدقات عنا، ولتكن الصدقات سرية فتكون ذات قدرة على حجب أذان الحاسد الخفية.

قطعاً وليدُ الحسدِ هو الرياء، كم من الناس من يبدي إعجابه باسم الرسام قبل إعجابه بفن لوحته "إن أُعجب"، ومن يرتاد اسم المطعم قبل رغبته بأطباق موائده "إن رَغِب"، ومن يبتاع اسم المنتج قبل معرفة حاجياته "إن احتاج"، وحده الرياء من ثقب قلب الذوق بسهم نظرةِ الغير، وقتل الأولويات برصاصٍ غذته آراء الآخر.

تذكرت إذ "سألوه: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ فأجاب: الرياء" رواه أحمد، محمد صلى الله عليه وسلم، إلاّ أنّ المصيبة عندنا تجاوزت كل المعايير، فَبتنا نرائي باللاشيء بعد أن كنا نرائي بالعظيم من الشيئ.

وما أصغرنا إذ ظننا أننا ننجز و لم يظن الناس، فاستجدينا ظنهم، فلم يظن الناس، وأوحينا وأوحينا، ثم أُجهدنا فأُوعينا أن ظنوا ظننا أيها الناس.

نعم ... أخيراً ... ظنَّ الناس، ها نحن أخيراً نرائي الناس، أُنهكنا لكننا أنجزنا "إنجازاً اسمه الرياء"، بل وأشركنا يا رسولاً أنت للناس.

ومن الناس من يرائي بالقول لا بالعمل وفيهم قال تعالى في سورة الصف **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾** (2-3).

وها نحن نصُف الأقوال صفاً من ما نفعله إلى ما لا نفعله، من ما لا نفعله إلى ما لن نفعله، بل وها نحن نستبق الصف نقدّم فضيلتنا المذكورة باللفظ ونواري رذيلتنا المصونة بالحفظ، ويكبر هو ويكبر ونصغر نحن ونصغر، إنه المقتٌ وأي مقت!

أكثر ما يَفطِرُ القلب ويُحزنُ، إقناعهم لأنفسهم بأن أعمالهم المرائية هذه وجهتها لله وحده، يستذكون بعقولهم المرائية، ويستترون بنفوسهم اللامبالية، وفيهم قال تعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (23)، وكأنه يوم القيامةِ يومَ العرضِ مَعرض، يَعرضُ كل عارضٍ ما له أن يَعرض، فيَعرضُ البعض ما عارضه للدنيا، ويَعرضُ الآخر ما عارضه عن الآخرة.

وبدأ عرضٌ بعد أن انتهى المعرض، عرضٌ بالفرقان يبدأ، يقدِمُ إلى ما عملوا فيجعله هباءً في الهواء منثوراً، فهو لغير الله قد عُرض في الدنيا، ولِعَرضه فكرة الفرقانَ كانت قد اعتُرضَت، ليس كل من عَمِلَ عامل، وليس للعمل من جزاءٍ إلا من القادر.

"للمرائي ثلاث علامات: الكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان الناس، ويزيد في العمل إذا أثنيَ عليه، وينقص إذا ذم"..

الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ..

قطعاً وليدُ الرياء هو النفاق، عجباً للمنافق؛ تراه هنا يراقص القاتل المأجور وترى ظلاله هناك تبكي الدم المهدور. عجباً له اختصر معاني البشرية التي منَّ الله عليه بها بالفكر الحَشَّري، وحدها الحشرة هي من تماثله من قبائل بني اللاإنسان.

كم يمنّ الله على البشرية من النعَم وكم يجحدون بها، تذكرت قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (13)، في سورة الرحمن، وإني لأتساءل بأيها نكذّب؟ كذَّبنا أو سنكذّب؟

فآلاء الرحمن كلها عَظمة، ورزقه إياها لنا رحمة، فهي كعدد لا تحصى، وكقيمةٍ هي لا تحصر، وبغيابها نحن المحرومون، وبوجودها نحن الغانمون، فإنتزاعها عنا بلاء، وفقدانها من حولنا وباء، فقد جاءتنا منه كلها بسخاء.

فبأي آلاء الرحمن نكذب؟ أنفكر أم ما زلنا في الحيرة نستتر، أنفكّر أم نحن نكفر؟ أما زالت لنا النيات كي نجيبه؟

أليست المادةُ والعلمُ صورٌ من صور الرزق كما الأوطان؟ الرزق كالهواء يحيطنا ويطوقنا بمكوناتٍ وأشكالٍ متنوعة، ينتشر من حولنا ونعيش به، فينا منه وبدونه فنينا. ولو أراد البشر الرزق الحق لبذلوا له العمل كما قال تعالى في سورة الذاريات **﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾** (22)، وكأن الذاريات تذروا لنا رزقنا الموجود في السماء وتقول: إنّ رزقكم الموجود في الأرض قد جاءكم من السماء، وإنّ عملكم في الأرض هو رزقكم المنشود في السماء.

"ثمرة القناعة الراحة وثمرة التواضع المحبة"..

الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه..

فُقِدَت كَلِماتُ هذه الصفحة مِنْ بَين المقتطفات ..

هذا ما كان من حُلمي، قصةٌ لحلمٍ رويتها بكمالٍ دنيويّ، وأصفها بفشلٍ بشريّ مدتني بحكمةٍ إلهية.

ثم ومن بعد برهة انتقلت من حلمي له سائلاً: ماذا عنك وعن حُلمك يا موسى؟

وكأنه بسؤالي سقط في بئرٍ اسمه بئر النشوة، ذو ماء يكنى الحب، بجدرانٍ اسمها الأحلام، وأراه يقطّع كل حبال الواقع التي تتسابق إليه لإنقاذه راغباً بانتحارٍ اسمه الإنتحار العشقي.

قال: أمّا حلمي؛ وُلِدَ في قلبي مولود، نصفه مني والآخر مِمّن أحببت، أهكني حبه، الطاعنٌ بالسحرِ هذا المحتال، استنزفني عشقاً، أجثاني على ركبتي معلناً ولائي لوجوده، جذابٌ هو جَذَبَ القلوب، بالقليل من قطرات العيون ترى الجمع تحلّق حوله كالخدم.

ووالله إن فيه لمعنى الجنة من البشر، فإني أراه بعينيّ ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلبِ بشر، دخوله حياتي كدخولي لها، صوته من أعذب ما خُلِق، وبنظرةٍ منه الحنان في قلبي قد بُعِث، وبلمسة يدي على جسده تعب السنين تراه مُسح. بكاؤه أقام فرحاً في قلبي بأن حجري بالقمر قد سُكن، تمركز على عقلي أخالُه قد سُحر، بَهَر قلبي أراه قد خُطف، طاف بي الكون كما طاف برحم الأم، شرَّبني الأبوة كما شرَّبني المزيد من التقدير للأب وللأم.

وإن فيه معنى الوالد، فقد وَلَدَ فيَّ المشاعر وأرضعها المحبة وجعل أرصدتها الجنة، سكب لي عطفاً حتى فار من قلبي تيار عشقٍ منهمر، شجاعٌ هو اقتحم حياتي بلا درعٍ أو تُرس، أصاب فؤادي برمحِ الحبُ عوده والعطفُ منه الرأس، اقتاده لروحه أسيراً لسجنٍ أسميته أنا من قبل .. اسمه ..

كان هذا حلم موسى، إلاّ أنه أكمل قائلاً: أتعجب! يتسابق البشر لاختيار نقاط تحولٍ في حياتهم، إلا أنها كلها نقاط تعرّج لا تتجاوز فكرة كونها نقاطاً للانعطاف.

إنّ نقاط التحول للبشر اثنتان: ولادةُ وليدٍ أو وفاة والد.

أما عن ولادة الوليد فقال: لا يمكن أن تكون الأبوة سحابة صيفٍ عابرة، بل هي قيمةٌ راسخة تُخلق مع الفطرة وتظهر للعيان بولادة الكيان، الزواج قد يمحى بالطلاق، والعلم قد ينفى بالجهل، إلاّ أن الأبوة شعورٌ دائمٌ لا يفنى ولا يستبدل، بل ينمو من اللامحدود للامحدود وأكثر، ولعل التغيرات الجذرية في جسد المرأة مرآة لما يحدث من التغييراتِ ذات طريق اللاعودة في حياة من بات أباً أو من باتت أماً.

هنا يكمن التحول فلا سبيل للعودة فقد وُلِدَ الوليد، حتى وإن مات لن تموت ما وُلدت معه من مشاعر، إذ أن لا حسرة أكبر من حسرة من مات له وليد، إذ بموته تُغتال حياةٌ عمرها تسعة أشهر، وتموت أحلامٌ عمرها المديد من السنين.

"ما أسعد الأمهات اللواتي يسبقن أولادهن إلى القبور، وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهن أولادهن إليها"..

المنفلوطي..

أما عن من لم يُرزق وليداً أقول: كم أغبطه إذا صبر، إذ أن في حرمانه عظمةً تفوق عظمةَ ما يحظى به البشر من الولد، فالحرمان هذا إما من شرٍ قادم من وليد أو من سوءِ دَربٍ قد مُهِّدَ له، أو دربٍ سريعٍ للجنة لمن يريد أن يصبر عن حرمانه بأن يكون والداً لوليد.

ألا إن الصبرَ مفتاح صندوق الحرمان، إذ أن امتلاكك للمفتاح هذا يخولك لفتحه والتمتع بما فيه من النعم والأجر والغفران.

وأما عن وفاة الوالد فقال: وحده من فقد الأب من شعر بالنقص أو العجز، فوجود الوالد غنىً مادي ونفسي ومعنوي، فبيت الوالد كالمحار فوالله مادام قد فتح لن يغلق أبداً، وصورةُ الرزق من يده "المقدرةِ من الله" ما زالت بإذن الله مقدرة.

لا عجب أن محمداً صلى الله عليه وسلم قال: "أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين" وأشار للسبابة والوسطى (رواه البخاري)، فمن وُهِبَ القدرة على مسح دمع اليتيم يستحق بإذن الله من يمسح ذنبه يوم الدين.

من بين مكوّنات الحلمين استطاع موسى إعداد حلم آخر. قد اعتاد موسى التفكر والتدبر بالطبيعة والكون، بالإنسان والعلاقات، بالصداقة والحب، بالنَسَب والدم، كان يَبرَعُ باستخلاص الروابط وبحفظ الأسماء والأشكال، كان يعيش على مقولة:

"عوّدوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكّر"..

أبو سليمان الدارانى..

قال: فلنجعل من روايتك مستقبلاً لحلمي، أي.. مستقبلاً لأبنائنا، فلنمهّد لهم عرضاً من الهوايات وكماً من المفاجأت.

صار يستعرض كل الرياضات من ألبوم خياله، صار يهيئ الكمائن الجميلة ليصطاد بها أفئدة أبنائي وأبنائه.

ما بين أحلامي وأحلامه خطر بباله إهداء وليده من الآن إهداء، هذا الوليد الذي جاء للتو في المنام، الوليدُ الذي لم يختر أمهُ بعد و لم توافق هي أصلاً عليه.

سألته مندهشاً: أيكون العطر إهداءً مناسباً منك لوليدك؟

قال: كم أعشق العطور! إلا أني لا أنتقيها لأصدقائي ولا أرغبها هدايا لأحبائي، فالعطور كالألوان تألفها الروح بلا سبب، وتليق بأنواعها أنواعُ البشر، فمن الألوان ما نستنشق به من عبير الدنيا ومن العطور ما تلوّن لنا نقاء النفوس فيها.

نعم، العطر ليس من شيم هداياه، كانت أجمل هداياه محصورةً بحاملة المفاتيح، فالفكرة من الهدية عنده التطويق لا رشوة القلب، فحاملة المفاتيح دائماً ما تكون في يدك وإن انتقلت منها تراها جلست أمامك قِبالةَ عينك، فبها لا يترك لقلبك مفراً منه، لقد أَمسَكتَهُ أنت بيديك وتحلقت حوله رؤوس أموالك ثم أحطتها أنت بنظرك حين افتككتها من يديك.

أما أنا فكانت هداياي محصورة بالأحذية، نعم وحده الحذاء من يحملك عن كاهل الأرض ليطأها بدلاً عنك، يتلقى عنك الأذى ويحميك من ما فيها.

ولا مانع عندي أن أدعك تسعى لتلميعها حين تتجرأ عليها فتهملها، أو أن تسمح للأرض بأن تهينها.

وكان أن حاك بصدري تساؤلٌ: أن ما هي الهدية؟

قطعاً ليس المقصودُ بالهدية تلك المجهولة التي تُكَفَّن بأوراقٍ ملونةٍ ورديةٍ وغير وردية، والتي تُبتاع ببضعٍ من مالٍ مقطوعٍ من المشاعر، وليدةَ عقلٍ لا وليدة قلب، ردّ لدينٍ لا ردٍ لعشق، نحو آخرٍ كواجبٍ لا كخطوةٍ نحو حب.

بل هي اقتطاعِ قِطعةٍ "وإن صغرت" من القلب لصاحب جَسَدِ قلبٍ آخر، تزرع فيها كلمة الحُب بالنكهة الخالصة النفيسة، لعلهُ ينقلها إلى هناك برفقٍ من يدك لرفقةِ قلبه للأبَد، لا غاية منها سوى رسمِ الشكر لله على امتزاج حياتك بعصارةِ الحب المرصع بالرضا والسرور النابع من عينيه، ملوّناً إياها بالإمتنان داعياً اللهم لا نريد له أيَّ حرمان.

وإنها لتبدأ بإلهام يُلقى وحياً من الله في قلبٍ متلهفٍ فَيَسقُط فيه كغاية، فتدور دوران الرحى على حبوب الأفكار طاحنةً إياها تاركةً منها بذرةً واحدة وأحياناً أكثر، تَنبت لاحقاً في لسانٍ أو مالٍ أو إجراءٍ أو قسراً مجردَ حلمٍ أو خيال.

أتدرون أين يكمن الردُّ منها أيها المُهدون؟ إنه في تلك اللحظة التي يَشْرَقُ بها المُهدى له من شدة فرحه القلبي، والتي فيها تُشَلّ أطرافُ عقله شللاً شاملاً نتيجة مباغتة قلبك إياه. الهدية مرسالُ حبٍ لا انقطاع له، يصب فيك شاراتِ الشكر على القبول ويتلقى بها رسائل الفرح من أثر المقبول.

أنت أيها الحبيب.. أيها الأب.. الأخ.. الإبن.. أيها الصديق.. أيها الأنا.. أنت يا من قُصِدْتَ بالهدية، كن على علمٍ ودراية كافية بأن الهديةَ جسدٌ إلا أنه ليس ببشريّ، أسكنته أنا روحي البشرية فتلقفها مني بعناية قلبية، اسقها من عنايتك ولقّمها سعادتك واشكرها بقبولك الدائم لها بجوار حضرتك.

وحذاري! اعتنيها عناية جفنٍ لعين، عناية رحمٍ لجنين، انفض عنها أسباب النسيان من أثر الزمان، ورُدّ عنها كل مكروه أو خطر عليها من الحرمان، اشهد من خلالها كل الوجود، واسمع من جنباتها ذكريات المحبوب، فحُلُمُ إسعادك مكنونٌ فيها، ودقات قلبي ما زالت لها بوصول.

فلا تَفقدها يدَك ولا تُسقطها جيبك، لا تثبّتها على مسمار حديدي معوجّ ولا على جدار حجريّ مائل، ضعها هناك على شُرفة روحك المطلةِ المعشوقة من

قِبَلِ روحي الهائمة، لعل رياح الحنان تُجَفِّفُ وتزيد من ظَمأ شوقي لعلها تشتعل ناراً تصبُ جام ولهي إليك.

ما الهدية إلا ضرباً من التوأمية، فشِقُّه الأول قد شَقَّ قلبي واستوطن وأي استيطان! وشقّه الثاني قد شَقَّ حياتك وتطفّل فلا تسلبه ذاك المكان، ادعوه للإستيطان كما دَعَوتُ ما شَقّني للتطفّل، وما تطفّله فيَّ إلا ليُعَلّمَني بما أُتبِع من الخطوات لعلي بها أكثر الأشقاء المتطفلين أشقاءَ وأشقاء.

إلا أنه اليوم ارتقى أن يهديه منهجاً للحياة، ففكّر، فكّر ودبر..

المُقتَطَفَة التاسعة ..

وُلِدَ في قَلبي مَولود 2

وُلِدَ في قَلبي مَولود 2 ..

دخلت يوماً عليه غرفته لأشاركه الحديثَ كما تشارك الأرضُ القمرَ ضوءَ الشمس الجميل، أما هو فكما القمر؛ يأخذ من نور الشمس ويعكس منه فور وصوله إليه، إلا أني كالأرض لغير الأخذ "إن أَجدت" لا أُطيق.

هو كما القمر، أوجب على نفسه دورةً في الكون إضافةً لما للأرض من دوراتها، فتراه يَلُفّ الناس حباً ورعاية. وإن كان القمر أصغر حجماً، فصغر حجمه يعود لإكتفائه بالعضل والعظم وإسقاطه عن كاهله الدهن والشحم.

وكلما قلت له هذا أجاب: ولكنك أنت من لا تصلح الحياةُ إلا عليك!

كم أحب مشاركته الأحاديث، تجد الأحاديث معه ممتعةً مفيدةً، جذابةً جميلةً، كم أتوق لما يحمله المستقبل لنا من أحاديثَ مشتركة.

المستقبل؛ لا يكون المستقبل مستقبلاً إلا أذا استطاع الإنسان قراءته بدون سطور الماضي، في الماضي عِبَرٌ إلا أنها ليست أسلوباً للقادم من الحياة، لا داعي لارتداء حجاب الزمن لإقتحام المستقبل، ولا داعي لثوب الجاهلية لمساعدتنا بالدخول في فوهة المجهول.

دائماً ما كنت أتساءل: لَمَ لا نزال نرغب بالماضي كطوقٍ مزعومٍ للنجاة في مستقبلنا البعيد؟

في الحوارات الثنائي ميزةٌ عظيمة، إذ إنك إما مرسلٌ أو مستقبل ولا ثالث لهما، وكلاهما عملٌ عظيمٌ جميل، فالحوار هذا إن أهملته قتلته فوراً بأرضه، لن تتركه وتجول في مخيلتك، لن تسرح في أحلامك غير آبه بالواقع وإياه، لن يتسلل الملل إلى قلبك، ولن يشتت النعاس رباطةَ جأش جفنيك، فكيف إن كان الحوار مع محدّثٍ كموسى، محدّث بجوقةٍ من المحدّثين؟

بدايةً أقول لكم، عجباً لغرفته! وكأنه يحل ضيفاً عليها، تراها كأنها غير مسكونة فكل ما فيها لقدر، وكل ما فيها دوماً لمكانه، أهي غرفةٌ أحادية السكن؟ أم لوحةٌ حيةٌ ثلاثية الأبعاد؟ ترتيبها وصل حد الإحتراف، ولنظافتها حدٌ صعبٌ الإختراق، ووالله لو دخلتها الأمس لوجدتها كما اليوم كما الغد كما بعد غدٍ، إلاّ أنه لا ينقصها التجديد.

رأيت على مكتبه الصغير قصاصات ورقٍ صغيرةٍ متشابهةٍ، فلما رآني أنظرها مدها إليّ لأتفحصها، فوجدت فيها كلمات، وما كانت بالنسبة لي إلاّ كلمات!

نيّة، مفاجأة، وراثة، هواية، أسطورة، سُلّم وأخيراً الجد، وما زال يُعِد المزيد..

عجباً! أهذه أحاجي؟ بادرته جولةً من الأسئلة، بدايةً ما المقصود بالنية؟

قال: النية! النية هي النور الذي يضيئ الطريق لكل فعلٍ أو قولٍ، سواءً كان صادراً منّا أو إلينا، بصلاحها يصلح العمل وإن بَطُل، وببطلانها يبطل العمل وإن صَلُح.

وأما في هذه القصاصة، ما النيةُ إلا أساسُ بناء الأبناء، الأساس هنا دعاءٌ لله وحده بأن يرزقنا من يعمر الأرض وأراضي المسلمين، فجُلّ أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم دأبوا على طلب المعمرين فأنجبوا التابعين. هُم أنجبوا التابعين وأما نحن سنرى بعد حين، إن أراد لنا ذلك الله رب العالمين.

والمفاجأة؟ سألته: ما المقصود بالمفاجأة؟

قال: أريد من المفاجأة أسلوباً للأبوة، طموحي يكمن بمفاجأته بأعتى المفاجآت، سأعد له منها قبل ولادته ومنها بعد وفاتي، سأرسل له صوراً من الماضي القديم، ورسائلاً من المستقبل البعيد، سأعد العدة وأغزو قلبه كل حين، لن أفوت مناسبة ولن أهمل فرصة لإثبات حبي إليه، سأجعل منه مفاجأة لنفسه، لزوجه ولبنيه، سأعمل على إعداد مجدٍ يفخر به هو، ويفخر به هو من بعد بأخيه.

أكملت جولة أسئلتي، ما المقصود بالوراثة؟

قال: أرى الحياة بعيني سائرةً بنظام الوراثة، فبنظام الوراثة هذا نسيطر على مستقبلنا عن طريق ماضينا، ليس المقصود بالوراثة هنا ما حملته الجينات الوراثية بل الجينات الأخلاقية.

فإن أردت ابناً باراً فلتكن أنت الأب البار، وإن أردت زوجةً صالحةً فلتكن أنت الزوج الصالح. الأخلاق نَرِثُها وراثةً، فلنحسّن جيناتنا الأخلاقية لعلها تصلهم بحاله أقرب للكمالية.

وحمداً لله فمن الأخلاق ما هو معدي كما الأمراض، فإن أخفقنا إكسابهم إياها أكسبهم الله إياها من المحيطين، وحذارٍ فالأخلاق كما الذوق كما الحب الصادق كما الشرف إن فُقد مرةً تراه لن يعود.

ولنتحمل المسؤولية لعلها تفضي إليهم، فالمسؤوليةُ هي الخطوة الأولى في الطريق نحو التميّز، وهي الفرق بين صاحب القرار ومنفذه، فمن لا يقرر حتماً سينفذ، ما حياتنا إلا تراكم قرارات على هيئة أحداثٍ في سجلِ الأيام.

"الميّزة الوحيدة التي تجمع بين الناجحين في العالم تكمن في قدرتهم على تحمّل المسؤولية"..

مايكل كوردا..

عُدت للسؤال مرة أخرى، ما المقصود بالهوايات؟

قال: لقد خلق الله للجميع المواهب والهوايات كما خلق لنا الأجساد، ما الهوايةُ إلا ما زرعتهُ روح المحيط في وريد الوليد، وإني سأسعى لإظهار الحب مني ومن زوجي للمفيد منها والجميل، سأسقيهم منها الأفضل، سأوحي إليهم بفضلها وبمستقبلها وبما لها من أثرٍ جميل، سأسعى لإقامتها، وقد أدعي حبي لها، سأمتهن التمثيل من أجل إسقائه الهواية وما فيها من المفيد، وما الموهبة إلا ما زرعة الله من إتقانٍ في أي هواية أرادها لنا تعالى.

إني موقنٌ أن البطلَ بحاجة لإعداد مسبقٍ لمدةٍ تقرُبُ الأربع سنين، وإلا فلم تقام البطولات كل أربعة منها؟

وكيف إن كان الإعداد منذ ولادة الوليد؟ فلتكن الهواية هُوية، وليكن العلم عملاً، وليكن تطبيق الطموح مسألة وقت.

أكملت جولة أسئلتي: ما المقصود بالأسطورة؟

فأجاب: إنها ما تعلم من الإسطورة نفسها، عادةً ما تكون الأسطورةُ لغاية أو لحكمة، فلنأخذ من كل قصة أو رواية أو أسطورة العبرة والحكمة، ولنلقي عنا أوهامها وخرافاتها، سأزرع فيهم أنّا لا ندري نحن الآن إن كنا سنصبح أسطورة يوماً ما!

عاودت للسؤال، ما المقصود بالسُلّم؟

رسم لي سلّماً على ورقة ثم قال: هذه قصةٌ أسميتها السلّم التعليمي، سأرويها له كل عام من على نفس الرسمة، فكل درجة فيه عن عام دراسيّ.

سنجتازها معاً، ستتبع أقدامي أقدامه بحذر، لن أوجهه بل سأوحي إليه بقَدر عملي على قَدر علمي، سأمسك بيديه وأترك له سبيل الإرشاد، فإن صار ناحية الخطر تثاقلت عليه، وإن راح صوب الخير ركضت معه إليه.

لن أفارقه، سأقول له فيها إني معك أحترق منيراً إليك الطريق وإياك دوماً أسير، سأخبره بما ينتظره على مدار الدرجات القادمة، سأرسم له الأرضية الموجودة في نهاية السلم، حيث الراحة والفخرُ واستقبال السلم الجديد.

إني أرى في العام الدراسي مباراةً لكرة القدم، فالإبن هنا المهاجم الصريح الوحيد لفريقٍ الأهلُ هم أعضاؤه، رأس حربتنا هذا اللاعب الحبيب، نصف الجمهور مِمّن يُحبونه ومِمّن يُحب، والنصف الآخر مِمّن يكرهونه ومِمّن ظَّن أنهم يحبونه.

فإن أحرز الهدف ذاع صيته، وإن هُزم هُزت أركان ذويه، فليلعبها مباراةً نهائيةً، وليطلق لنفسه عنانها، فما أجملها من فرحةٍ لمن أحرز الهدف! وما أجملها من فرحةٍ لمن فاز من فريق! وما أعظمها من فرحةٍ فرحةُ الجمهور، هذا الجمهور العزيز.

لن يذكر أحدٌ ما بَذَل من مجهود، ولن ينكر أحدٌ ما أحرَزَ به، المجهود يبقى مجهولاً ولكنه بقلبي يبقى محفوظاً.

سكت برهة ثم قال:

"لا تربّوا أولادكم كما ربّاكم آباؤكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم"..

الإمام علي كرّم الله وجهه..

سألته وأخيراً، الجد؟

قال: إنها رسالة إلى جدي فحواها:

جدّي العزيز..

إعلم.. أنك أنت أصلُ الأصل وبه فلك بر البر، وأنا أَعلم أنك تقول اللا أنفةً وعزةً لنفسك، وأعلم أنك ما زلت ترغب كما نرغب، فما زالت الرغبة بالحياة في قلبك حيـــةَ تُرزق، وما زال طعم الدنيا في طرف لسانك يدغدغ سقف حلقك محاولاً الوصـــول إلى الأسفل من عينيك، وصوتها في آذانك يئز أزيزاً وصولاً لقلبك ولكلا رئتيك ..

يا جد! سَل تُعطى، فما مكنّي فيه ربـــي خيراً فسيعينني عليه، ســـتجدني إن شاء الله عليه صابراً ولا أعصي لك أمراً ..

يا جد! إن لم تسأل فدعني أنا أجيب، سأكون على راحتك ساعياً وعلى رغباتك مرابطاً، سأجعل من مخيلتي حصاراً قاطفاً لرغباتك أُقدمها على جسدي طبقاً إليك ..

يا جد! عليك أكل المفيد وشرب اللذيذ ولبس الجديد، بل وعلي تـــوفير المفيـــد واللذيذ والجديد، فأنت محط أنظارنا، وأنظار من أحَبَ وَلَدُكَ، وأنظاري أنا ابنه الصغير ..

يا جد! دعني أرسم مستقبلي على آخر أطراف لوحة حياتك، فألواني بقلم القلب تتأهب، وأفكاري بلسان ذاكرٍ تتجهز، فالحياة دينٌ ندفعه طوعاً ونسترجعه قصراً ..

إلا أن هذا الديّن فيه شيئ من الربا، فإن كنـــتُ أنـــا مبـــادراً بعـــث لي الله المبادرين، وإن كنت لك مخلصاً أخلص لي المخلصين، وهذه كلها سُنَن كونيةٌ تـــتم بمشيئة الله رب العالمين ..

حفيدك ابن البار..

يا بنيّ هذه لابنك لقّنه إياها في الصغر، لعلها تنبت فيه مع الكبر..

سألته: وآراء الناس؟

قال: "الآراء الجديدة دائما ما يُشَكّ بها وتُعارض لا لسبب سوى لأنهـــا ليست شائعة"..

جون لوك..

كان وما زال يسعى لبناء مجتمعٍ مثاليٍ متكامل، إذ يحرص على إمداد صـــحبه بالفكر والمادة والنصح ما تمكّن منه عن طيب خاطر، يعطي عطاءَ من لا يَحسِد، لا

ينتظر السؤال، يغرف غرفاً من مكان لا ينضب، لعل مجتمعه هذا يكـــون أســـواراً عالية عن كل منكرٍ عن نفسه وأُسرته غداً.

أشهد لك يا موسى، أني لم أشهد من يربّي ابناً له قبل ولادتـــه قـــط، بـــل وبسنين! ولن أشهد، قطعاً لن أشهد ..

من هو هذا الموسى؟!

إنه ساعي الحب، معالج القلوب، قمّام الهموم، كنّاس السموم، محرر النفوس، قاتل الملل، مجدد التدين، رامي الأفكار، باني للغير الأمجاد، محقق للصحب الأحلام، منتقي ورد الكلام. امتلك مفاتيح القلوب، كان يتقن الكلام القلبـــي كما كـــان يتقن بعض المسرحيين الكلام البطني، كانت البسمةُ له الدميةَ على مسارح الواقع، كما كانت لهم الدمى على مسارح العوالم.

متجددٌ تجدُ دوماً عنده كل جديد، لطالما كان يتغنى ببيت شعر يقول:

والشمس لو وقفـــت في الفلـــك دائمـــة

لملَّهـــا النـــاس مـــن عجـــم ومـــن عـــرب

الشافعي..

طبيبٌ لكلِ وعكة صداقةٍ انتابتنا، دائماً ما يبادر استلال بسمته في مبارزاته مع الغير، مرافقته للصغير وهبته القدرة على مجاراة الكبير، كـــم اســـتطاع احتضـــان الأصغر فوهبه الله القدرة على احتواء الأكبر، تراه مع الصغير الكبيرَ الناصح وتـــراه مع الكبيرِ الصغيرَ المنبه.

كان رَجُلَ الآسف، آسف! كم من رجلٍ رفضها في حياته ولا اعترف بهـــا في قاموس مفرداته، الآسفُ كلمةٌ بصورتين، الأولى في البوح بهـــا، والثانيـــة في استقبالها.

تخالها للمخطئ من الرجال كالسرِّ الذي ترفض رجولته البوح بـــه، وتراهـــا للمتلقي كالسيف الذي دخل جسده مسبقاً فإخراجه صعب عليه.

قد أخبئ سري في أذنٍ لغيره، قد أستثمر مالي في جيبٍ لغـــيره، قـــد أضـــع حبـــي في قلبٍ لغيره، ولكن والله لا أؤمّن على قلبـــي في صدرٍ لغيره.

فُقِدَت كَلِماتُ هذه الصفحة مِنْ بَين المقتطفات ..

لفرط ما ركضت قدماه للخير ترى قلمه يركض على الورق إن أراد كتابةً، وترى ريشته ترقص على اللوحة إن أراد رسمةً، مبدعٌ يحسن الإبداع كما يحسن دوماً لخلائقِ الله.

أحسبَ كل ما ينطقه رسائل من الله يجريها للبشر على لسانه، أرى لكل أفعاله أهدافاً، ليست الحسنات من ربه فقط، بل إيصال لذة عبادة القدير للمحيطين، كان دائم الدفع للأمام، هدفه الإعانة وطموحه الإعمار.

كان فكره يتماشى وابن العباس رضي الله عنهما، كما تجاري العين أختها فلا تراه يقاطعه ولا تراه يجابهه، بل يحاول أن يجاريه، كان دائماً يقول قوله: عن ابن العباس رضي الله عنهما: "ثلاثة لا أُكافئهم، رجل يبدأني بالسلام، ورجل وسّع لي في المجلس، ورجل أغبرت قدماه في المشي إليّ يريد السلام عليّ. أما الرابع: فلا يكافئه عني إلا الله: قيل من هو؟ قال: رجل نزل به أمرٌ فبات ليلته يفكر بمن ينزله، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي"..

كان حَسَنَ الظن بالله دوماً، وكان دائماً ما يقول:

"أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء"..

قوله تعالى في حديث قدسي ..

وقد ظننتُ وقد ظننتَ! ولكن، هل أحسنتُ وهل أحسنتَ؟

الليل عنده مناوبةُ عبادة، دائماً ما تذكرني ليلته بقوله تعالى في سورة السجدة **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾** (16)، وكأنها تأباها، فهي دون المستوى تقبع، لذا تتجافاها فهي بأعلى مستوى تطمح.

تترفع جُنوبٌ عن هذه المضاجع في الدنيا نحو سجدة، وهي ذاتها ستتجافى لتلك المضاجع في الأخرة كجزاء لتلك السجدة.

كان يعشق قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى قال: "وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه" رواه البخاري.

كان يستنشق السُنن ويلتهم الفرائض، كلما سألته ألا تتعب؟ ألا يكون جسدك بالإرتخاء يرغب؟

قال: "أفلا أكون عبداً شكورا؟"

وقد كان يصلي من الليل حتى تتفطّر قدماه، فتقول له عائشة رضي الله عنها: هوّن عليك، لقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، فكان هذا جوابه محمد صلى الله عليه وسلم، رواه مسلم.

إذن.. هو محمد صلى الله عليه وسلم قد كان، ونحن، هل قد كنا؟!

كان يبرع في تطبيق ما كتبه ديفيد فيسكوت في كتابه:

"إن أصدقاءك في حاجة لأن يحتفلون بنجاحهم دون أن يشعروا أنهم يضايقونك، كما أنهم بحاجة إلى مشاركتك الوجدانية حال إخفاقهم دون أن تضمر في نفسك شعوراً بالارتياح تجاه إخفاقهم هذا"..

تأملات في الحياة ..

كثيراً ما تساءلت في نفسي أأريده صديقاً أم أخاً؟

يمتاز الصديق عن الأخ ببيئته المختلفة، إذ أن توفّره حين فرحك أو حزنك مساهمةً منه لا مشاركة، فهو يُجذَب إليك عن طريق القلب لا عن طريق الدم، ولطالما كان القلب مصدر إلهام وعمل الدم.

والقلب يهوى مرافقة الصديق أكثر، فهو يطابقه بالمزاج والرغبات كما يطابق التوائم بعضهم بالأجساد، توافقية الصديقين بالهوى أقوى من توأمية الأخوين بالشكل، ففرق السنين كفيلٌ بقتل أجزاءٍ من الإنسجام، إلا أن قوة جذب الدماء لنفسها كبيرة وكفيلة بالإلتصاق أبداً مدى الحياة.

بيد أن صبرك على الصديق أصعب، إذ أن الخلاف يقطّع قوام القلب، على عكس صبرك على الأخ لا يقطع قوام الدم بل يفترق الدم من حوله ويلتئم من جديد.

احترف موسى الصداقة وأبدع في الأخوة، أتقن البِرّ وإزالة الخلافات، أراه قطار الوصل للأرحام، كله ودٌ ذو قلبٍ للحب قد خلق.

كان منهجه إثبات الثلاث:

"ثلاث تثبت لك الود في صدر أخيك: أن تبدأه بالسلام، وتوسّع له في المجلس، وتدعوه بأحب الأسماء إليه" ..

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ..

ما زلت أذكر أول لقاءٍ جمع بيننا، كما يذكر النحلُ خطه في المسير، فالبدايةُ كانت من أحب عاداتي إليّ وهي سؤالي الله تعالى الصديقَ الحقَ عند دخولي في كل مجتمعٍ أو مكان جديد، فلا يدري أحدٌ بأي جمعٍ يلقى بينهم الصديق، كما لا يدري بأي أرض للأبد فيها سيبيت.

كم أعشق تلك القصة الجميلة بين محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه، كم أطمع بطلب صداقةٍ كمثلها، كم أطلب أقل منها، لا أكثر، فللأكثر منها لا أحد يطيق.

ذاتَ يومٍ وبعدما انتقلت لبيتي الجديد، زرت أقرب مساجده زيارة مستطلع لمعلمٍ جديد، وإذ بالله يلهمني أن أدعوه فقلت: اللهم الصق بي خيرهم، وأبعد عني أشرَّهم.. ثم نظرت يميناً ويساراً كمن يقطع الطريق خائفاً أن تدركه مركبة، إلا أن قلبي نظر نظرة مترقب أن تدركه أي إشارة، لعل الله يرسل إلي صديقاً من بعد هذه المسألة.

وبعد الصلاة ألقت عيناي شباكها على ذاك الرجل، لم أحادثه إلا من بعد فترة إلا أن قلبي بدأ محادثته منذ لقائهما الأول.

يقولون إن الحب من أول نظرة وأقول إن الصداقة من أول نظرة أيضاً، دائماً ما تكون النظرة الأولى نصف المسافة بين المتناظرين.

فأصل الصداقة حبٌ مزروع من قَدَر الله في قلوب البشر، فإن تحركوا انتشر ما كان فيهم من حبوب طلعها، فما كان على توافق تجاذب واندمج أبدياً منتجين معاً ثمار الإخاء، وما كان على خلافٍ تناثر وعاود البحث من جديد، ووالله لا يعيب الصداقة إلا اختلاف الدم ولو دمجت الصداقة بالدم لما استطاع الإفتكاك منها أحد.

عجباً له هذا الموسى! كأن بيت الله وجد ههنا لإراحته، لا أذكر قط صلاةً إلا وفيها هو مشارك، أسقاه الله نوراً لم أر لبشرٍ بمثله من نور، كلما نظرت لوجهه

تذكرت قوله تعالى في سورة النور، ﴿... نُورٌ عَلَى نُورٍ...﴾ (35).

بَدَرَ لذهني تساءل: أليس النور وحده كافياً؟

نعم، إلا أنه بالجمع تم إفاضة، هي ليست إضافة، فالنور المُضاف لا يضيف للنور نوراً، بل يفيض، إنه يفيض وينتشر، ينمو ويزدهر، فاللامعدود مع من هو من مثلهِ لامعدودٌ واحد، ولكنه قد أفاض وعليه تم التأكيد، فكيف إن كان النور لله؟ وكيف إن كان هو من سيهدي إليه؟

لقد تمت الإستجابة لدعائي، وكم من دعاء استجاب له الله ونسيناه، وها أنا أدعو مجدداً وأقول:

اللهم اشدد به أزري .. وأشركه في أمري ..

كي نسبّحك كثيراً .. ونذكرك كثيرا ..

إنه الدعاء! لا عهد لنا بمفتاحٍ لأقفَال الحياة ولا بمستسقي الخيرات ولا بطارد الشرور غير الدعاء، فمهما تعددت المسائل توحدت الحلول وتجسدت به، وحده الدعاء من يصير الإجابة من الطموح إلى أرض الواقع أو إلى خيرٍ مستتر أو إلى طرد شرٍ مقبل.

ما زلت أذكر ذاك اليوم عندما صعقني موسى بآية كأني لم أسمعها من قبل، إذ قال تعالى في سورة النجم ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (29).

سبحانه! إنها أسلوب حياة، وكأنك بالإعراض هذا تستبعدهم وباستبعادك هذا تتقيهم، فهم أمراضٌ وَجب اتقاؤها، أمراضٌ معديةٌ ولها أَعراضها، فكيف وإن كان أول أَعراضها إعراض، فإعراضهم عن ذكر الله أقبَحُ إعراض.

حقٌ علينا استبعادهم، وإنك باستبعادهم هذا تغدو بأعيُنكَ وحيداً، وتتجلى بأعيُنهم بعيداً عالياً كالنجم، سيشيرون إليك من بعيد فأنك مضيئ، وحدتك على جَمعِك معهم نجومية، دُم مُعرضاً، دُم ذاكراً تدم نجماً، تدم محباً.

رسالة إلى الله (4/2)

(الأسبوع الثاني)

وفي سبت أسبوعي الثاني، رأيت صديقي منهمكاً بزراعة بذورٍ عكست على وجهه فرحة من يلتقط ثمارها، فألهمني فكرةً أن أكتب فكتبت:

أحبّك ربـــي ..

أحبّك حباً كأنه بذرة ألقيتها يا ربـــي في قلبـــي فنَبَتَت، كبرت فـــأبهرت، ناطحت السُحب فتفوقت، نضجت فأثمرت، إلاّ أنها لا تموت. وكـــأنّ شـــراييني منازل لجذورها، وكأنّ أفعالي مِداد لأغصانها، وكأنّ أقوالي قطاف لمن هو حولهـــا، أحبّك ربـــي ..

وفي الأحد وأثناء عبوري لدرب عملي، تأملت الدرب، أليس لكل الأمـــور دروب؟ فخطر ببالي وكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه دربٌ دخله الأنبياء، وإن شِئتَ سَتُتبِعُنا بهم والآباء والأبناء، أنواره هدى وأشجاره طيبُ الأرزاق، نسائمه روحانيات وآفاقه جنـــات، ســـقفه السعادة وأرضه منصة الغفران، أحبّك ربـــي..

في الإثنين كنت وصديقي نتناوب على رمي السهام لنصيب الهـــدف، إلاّ أنّ السهم رمى قلبـــي بفكرٍ أصابه فكتب القلم:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه سهم، سهمٌ من نور أنطلق، اخترق قلبـــي ثبتني على الحق كالهدف، أنار جوارحي سعياً للخير، أظلم عليها منافذ الشر، أحبّك ربـــي..

وفي الثلاثاء وعلى ضفة النهر وأنا أتأمله، إذ أن الماء يروح ولا يغدو، ألهمـــني جماله فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه نَهر، منه أستقي ومنه أَسقي، فيه أُبحر وفيـــه أُبهـــر، وإن فـــاضَ أفاض، فيضان حبّك يا إلهي إعمار، يفيض على من حولي فضلاً وزاد، أحبّك ربـــي..

في الأربعاء دُعيت وموسى لندوةٍ عن أسلوب الحياة، كم كانت جميلةً! كأنها من جمالها تقول لي أكتب، فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه أسلوب حياة، ففيه يمر على كل ما لدي من قولٍ وفعـــلٍ، يصوّب منها ما انحرف، ويثني على ما منها جاد وانصلح، أحبّك ربـــي..

وفي الخميس ذهبنا للتبرع بالدم، كم عظيمةٌ هـــذه الصـــدقات الإســـلامية الإنسانية، لا أظن أن هناك من هو أثمن من الدماء حين تتناقل من جسد لجســـد. وأنا أراه خارجاً من جسدي استشعرته يقول لي أن أكتب، فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه دماء، دماءٌ في الجسد تتدفق، تمره خلية خلية، تبـــث فيهـــا غذاءً ودواءً، غذاءُ حبّكِ يا إلهي سلام، ودواؤه رضاك يا رحمن، أحبّك ربـــي..

في الجمعة وأثناء إفطاري المعتاد مع صديقي، ألهمتني المشـــاركة والأطبـــاق المتبادلة أن أكتب، فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه غذاء، غذاءٌ يلهمني المزيد من النَهم، ألتهم منـــه فيلـــهمني الصواب، أشرب منه فيسقيني الثبات، يتجسد في جسدي يسوقني للجنة ويـــدفعني عن النار، أحبّك ربـــي..

المُقتَطَفَة العاشرة ..

سِحرُ الفَجرِ

سِحرُ الفَجرِ ..

كانت الليلة الماضية ليلة رأس السنة، كانت الأرضُ فيها مسرحاً للآثام شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وكأنّ الأرض كانت فيها منصةً لإطلاق الأفعال الحيوانية المكبوتة في أجساد البعض من البشر.

لا أدري لعلهم وجدوا رخصةً لم أدر بها بعدُ لترك الفرائض ولإقامة الرذائل، ترى البعض يتراكضون للفن هابطين نحو الحضيض، والبعض ينظرون للتنجيم صاعدين صَوب النجوم.

أيعتقدون أنّ كُتبَ الحساب قد تغلق في مثل هذه الليلة؟ وإن كان ما ببالهم حقاً، ألا تكون حفلة الخوف والترقب أجدى من حفلات السوء تلك؟ ألا تكون للفرحة سُبُلاً غير المجون؟ ألم يسمعوا قوله صلى الله عليه وسلم: "العبادة في الهرج كهجرة إليّ" (رواه مسلم)..

أرى السنين كالتنانين الأسطورية ذاتِ الرأسين، إحداهما يحمل الحزن والشقاء على الماضي الغير قابل للتعديل، والآخر يحمل الفرح والحذر من المستقبل القادم بالتغيير، انطواء السنة يعني حفر شبرٍ في القبر أو أكثر، قد يحمل معه خطوةً لجنّة القدير أو يحمل سقوطاً في غياهب الجحيم.

ما السنةُ إلا صورةٌ عن صور الحياة، إلا أن الحياة واحدة والسنينَ أكثر، وإنّا لنحصي الأيام فرحين بإكمالها لدورةٍ كسنة، ولا نحصي السنين جاحدين بمضّيها لإتمام دورتها كحياة، ووالله إنه للأجدر بنا الإعداد للإحتفال بما بعد الحياة بدلاً عن الإحتفال "المنغص للآخرة" ما بعد انتهاء السنة.

أما موسى ما فتئ يقول على رأس كل سنة:

To Insure A Successful Year..

You Must Begin On January 1..

From "Life's Little Instruction Book"..

إنها الفجر؛ إنها الفجر ..

كلمات طالما استيقظت عليها من صديقي موسى، عجباً له! لم أسمع عنه قط أنه فقد فجراً في جماعة، أخاله يبني بناءً وهمياً حجارته الصلاة وملاطها في تتابعها، لعلّه يسعى بصلاواته لإنشاء سلسلة ليطوق بها الأرض أطواقاً أطواقا. أعوامٌ وهو على حاله، لم أشهده يوماً مغتّراً بحفاظه عليها كما لم أره يوماً مزدرٍ لي بتقصيري معها.

كيف له أن لا ييأس من إيقاظي الذي عادةً به لا أفيق، كيف له أن يتشرب غضبي كل يومٍ من على الريق، وكأن خلْقه اسفنجة طرية قوامها ثابتٌ، فإن ارتطم بها ثَورُ غضبي ردّته بإستيعاب، وإن أطلقتُ عليها خرطوم صوتي امتصته بلا امتعاض.

إلا أنه ذات يوم قال كعادته: إنها الفجر!

إلاّ أني على غير عادتي غضبت... قلت له: اذهب.

فقال: إنها الفجر، إنها الفجر!

إلاّ أني قمت قَومة دب قطبٍ من سباته الشتوي جائعاً لأفترسه، فصفعت الباب بيديّ هاتين، فصفع البًاب بدوره وجهه، كان الباب الخشبي هو العازل ما بين يدي ووجهه إلا أنه كان أنموذجاً مثالياً في إيصاله الألم لقلبه.

توقفت بي الحياة ههنا برهة.. يبُس لساني كغصنٍ قُطعت عنه مياهه، بَهُتَ وجهي كوشاحٍ أبيضٍ رُشِق بحفنةٍ من رماد، تسمرت أطرافي كأنّ مساميراً طرقتها ثبتتها على سطحٍ في الهواء.

ما الذي اقترفته يداي؟ كيف لي أن أغرقت منقذي؟ قتلني خجلي مما صنعت ونكّلت بي فكرة رؤيتي إليه بعد حين.

ومن بعد الصلاة، ذهبت لغرفته غضباناً من نفسي آسِفاً إليه لأعتذره، وإذا به قد أعدّ لي وله كوبين من القهوة موقناً بأسفي على ما فعلت، كان يؤمن بأنّ الهدف من وجود الصديق ليس الإيذاء بل الإخاء، الخلاف بين الأصدقاء عنده مسألة وقت لا أكثر، وما دام الأصل الوفاء فلا قلق مما يحمله الخلاف من وثائق.

كذلك الحال مع الأهل والزوج والولد فأصل وجودهم الخير والبركة لا الخلاف وسوء الحال.

كم أعشق تلك اللحظات التي أجالس فيها صديقاً أحتسي وإياه شيئاً ما، كم جميلٌ ما تحمل من حوارات في العلن وأحاديث في السر، وكأن الجلسة هذه تنتقص من الزمن ما تزرع فيه من لذة الإهتمام بالآخر بسماعك له بأذنيك وإرسال الكلام منك حصراً إلى أذنيه لذا تراها دوماً قصيرة، مهما طالت.

"إذا صمت صديقك ولم يتكلم، فلا ينقطع قلبك عن الإصغاء إلى صوت قلبه، لأن الصداقة لا تحتاج إلى الألفاظ والعبارات في إنماء الأفكار والتمنيات التي يشترك الأصدقاء بفرح عظيم في قطف ثمارها اليانعة"..

جبران خليل جبران ..

وكم جميلٌ أن يقوم أحدهم بتحضير شيئ ما لك إكراماً لوجودك بين يديه، إنه يصرف من جهده إرضاءً لك ساعياً لإيصال لذةٍ لقلبك عن طريق حاسةِ الذوق في لسانك، جميلٌ أن يكون إسعادك هماً في بال أحدهم يشغله ويحتل فكره حيناً من الزمن.

إن كانت المعدة أقصر الطرق لقلوب الرجال، فالحفاوة بالإستقبال أقصر الطرق لقلوب المتصادقين.

موسى هذا يمتهن الضيافة امتهاناً، فهي تأخذ من وقته وجهده وماله، تراه دائماً يحرص على تقديم الجديد اللذيذ، كان شديد الإيمان بقول ابن العباس رضي الله عنهما: "ولطبقٌ بِدَانقٍ أُهديهِ إلى أخ لي في الله عز وجل أحب إلي من دينار أنفقه في سبيل الله عز وجل".

وكأن طموحه يكمن في إعداد استراحةٍ لزوار قلبه ليقدم لهم فيها الفكر الجميل ما استطاع، مع كرم الضيافة العربية ما اشتملت بأفكار وأساليب حديثة.

قال موسى قاطعاً علي خيالي، مشيراً إلى الهدفِ مما حدث في يومنا كما تشير بنات النعش للنجم القطبي: قال تعالى في سورة الإسراء ﴿... **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ (78).

إنهم ينتقون من الله انتقاء، يرسل الله للجمع نداء، البعض يقبل الدعوى والبعض يعجز عن الثمن، الثمن هنا استفاقة، بها نحصل على بطاقة، بطاقةٌ لرحلةِ إسراء،

فسبحان من يسري بعباده فجراً من أرض خيال الأوهام إلى أرض بناء الأحلام، هم هناك يبنونَ، من على مرئى من الجمهور، فالملائكة تترقب بنيانهم أنهم مشهودون.

إنه يقولها لي من بعد ما صنعت به! إلا أنّ قلبي أكمل قائلاً عنه: من البشر من أعطاهم الله لوناً من ألوان الكمال، قطعاً ليس كمالاً مطلقاً ولكنه بمعيارنا البشري القاصر كمالاً مطلقا. إلاّ أنّ فيهم بعضاً من الغموض، فجرحُ الإنسان منا ينزف غضباً أو حزناً أو دماءً، أمّا جرحهم فهو كسرٌ لا يَصلُح، هو بركان غضب أو إعصار حزنٍ أو بحرٌ من دماء.

إلاّ أنّ كمالهم هذا يلقي بظلال ثوران بركانهم على أنفسهم، فيصبّون غضبهم على أنفسهم حبّاً لمن قد أغضَبهم، ويعتصرون الحُزن بقلوبهم خوفاً من إظهار حزنٍ قد يُحزن من أَحزنهم، ويشربون دماءهم إخفاءً لدماءٍ قد تخيف من أدماهم، أليس كمالهم هذا بكمالين؟ كمالهم الأول بكونهم بما هم عليه، والثاني بسيطرتهم على نقصهم سيطرة سِجنٍ فولاذيّ على سجين نحيل.

عجباً! تراهم مقبرة ما فَسَدَ من مشاعر البشر، فكل حياتهم استقبالٌ لشكاوٍ في أسماعهم الصانعةِ للبشر كالبئر، وإيداعٌ في قلوبهم الصانعة للبشر كالقبر، ومسح دموعٍ واعتصارها في أعينهم الصانعة للبشر كالغَمام، ومطلوبٌ منها إمطارٌ لدموعٍ هيئتها الفرح وإن كانت حقيقتها الألم، عليهم تجسيد حزن الآخَر في أنفسهم وإظهار الفرح لمن يبتغيه. إلى متى يصبرون؟ صبرهم كصبر يتيمٍ لعودة أب له أو أم، إلى متى يصبرون؟ يعيشون بقيود الكمال مكبّلين بمشاعر الآخرين، كم هو عظيمٌ نهر الحب المتدفق من قلوبهم يسقي الأهل والصحب والجوار والأحباب.

أذكره كيف يدخل من الباب بابتسامته المعهودة كل فجرٍ، وكأن نورَ الشمسِ سبق لوجهه الأرضَ سبق الغزال لملاحقيه. ذكرني بقوله تعالى: ﴿...سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴾ (29)، كم جميلة هي سورة الفتح، قال قلمي مستوحياً مما تذكرت: جاؤوا سبعتهم موحدين، دخلوا المضمار متوضئين، خوفاً وطمعاً من رب العالمين.

وبدأت المنافسة، ها هم يصلّون، يركعون ويسجدون إنهم يتسابقون بل إنهم يتبارزون ثم أفضوا للسلام فعادوا للوئام، وشهدوا للجبهة أنها في الأمام ها هي تزدهر، ها هي تبتهج، فكانت لها سيماهم من أثر السجود، إنه النصر، إنه الفتح.

سألته خجلاً كيف ترى الصلاة بعينيك؟

قال: أراها انتفاضةً بكلِ الأحاسيس، فهي نسقُ حَركةٍ لكل الأعضاء، وسكونٌ وتوحدٌ لكلِ الأفكار، يقودها طموحٌ ينتشل الجسد من عالم الوقائع لعالم الأحلام، بها ينتفض الحب موجّهاً لله، وكأن القِبلة التي وجدت لتوحيد الصف، وجدت لتوحيد وجهة الحبِ، فهو بها يَشُعُ بكل اتجاه يهيم في الكون بحثاً عن خالقه.

"الصلاة لا تغيّر من سنن الكون شيئاً، ولكنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، لأنها تجعل النفس أكثر قبولاً للهدى، وأقدر على مقاومة الإنحراف"..

محمد كامل حسين ..

قلت: والجماعةُ منها؟

قال: بالإضافة لأسبابٍ لا أُحصيها أرى أسبابا، فالمصلي المُحُبُ لله بحاجة لجندٍ من حَولِه لعلهم يقومون معه، يصَوّبون حبه الجبار بقوةٍ نحو الملك الجبار، فالوقوف أمام الرحمن فيه خوفٌ وأمتنان. الوقوف هنا فيه لذةٌ وطمعٌ بالغفران، وحَيثُ قال تعالى في سورة البقرة **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾** (43)، فرض علينا غذاءً لا مجرد صلاة، وبكمال هذا الغذاء يزداد يقيننا بعظمته ثباتاً وقوة.

قوةٌ وأي قوة؛ فبالصلاة وحدها نسيطر على العقل والجسد والروح، هي غذاءٌ للبشر ودِرعٌ لهم عن الكون، فمن صلى كان مع الله ومن كان مع الله لا يهاب أحد.

سألته: والفجر؟

قال: هي كمِثلها من أخواتها الأربعة، وإن كانت الأصغر بالعدد، هي الأصعب على الملأ، وإن فيها ما هو مختلف، قد جعلها الله الأولى، وكأنها وجبة الصباح فلا فتور بعدها، فهي الوجبةُ التي تقطُر روحانيات وتبعث بالطاقات فتغذي الأرواح.

وإنّ بينك وبينها لمراحل، إيقاظٌ فيه إنقاظ، وظلامٌ دنيوي يتبعه نوراً ربانيـــاً، وسكون يفيض سكينة.

فأمّا الإيقاظ هنا فهو أيضاً من نوعٍ مختلف، فالفجر وقتٌ ساحر يطفي علـــى مصلّي صلاته هالةً من النور، ولّما كان في طريقها من ظلامٍ جعل الله لها من أجـــرٍ مختلف فقد قال صلى الله عليه وسلم: "بشر المشّائين في الظلم إلى المساجد بـــالنور التام يوم القيامة (رواه الترمذي)".

أمّا الآداء بسكون يعود علينا بسكينة، فالملائكة هنا هي التي تشهد. الفجـــر صلاة أراها صبغةُ رضا تصبغ الأقدار علينا فهي لنا مرحمة، وتصبغ الأفعال منّا فهي علينا موثقة، الفجر أمان بالدنيا وآمال بالأخرة، الفجر آداء بالدنيا وأجر بالآخرة، الفجر متعة بالدنيا وفخرٌ في الآخرة.

"الفجر صلاة، لا توقظ العيون من أحلامها، ولكنـــها تـــوقظ الأرواح لأحلامها"..

الرافعي ..

كيف لي أن أتقاعس عنها تقاعس المتردد ما بين ألف طريق؟ تذكرت قولـــه تعالى في سورة الإنشقاق **﴿وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ﴾** (21) تساءلت بنفسي: أعبثٌ هو أم جنون؟ استهتارٌ هو أم أفتراء؟ وإنّي لأراه افتراق، افتراقٌ فيـــه انشقاق، انشقاقٌ للعقلِ عن الروح.

أصبحَ العقلُ هنا بلا روحٍ، فباتت الروحُ هناك بلا طُموح، أليس السجود لله أكبرَ طُموح؟ فكيف إن كان المقروء هنا القرآن، ألا يعلمون أنه الفرقان؟ فأين هي العقول؟ ألا يُفرِقون عاقبة السجود، عن العدول عن السجود.

ما السجودُ إلا طموحٌ في طموحٍ من طَموح، والتخلّفُ عنه عبثٌ مجنون، فيه استهتارٌ بافتراء، وصل حد الإفتراق وفاق حد الإنشقاق، أيستحقون منا بعد ذلك أيَ إشفاق؟

قال موسى: وفي المغرب والعشاء والفجر إضافة، إذ أن الإمام يمـــد أثنـــاءهم قلبه للقرآن فيغرفُ بصوته من آياته الكريمة، كما نمـــد أيـــدينا لصـــندوقٍ مـــن

المجوهرات، وأي مجوهرات! تراه في كل صلاة يختار من القرآن ما نحتار بعظمتـــه، ووالله ما اختياراته إلا رسائلَ من الله يوحي لنا بها بالأمل وللعمل.

ذَكرت قوله تعالى في سورة الحشر **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَـــهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...﴾** (21)، فقال موسى:

كلماتٌ بذكرٍ.. ذّكَّرت بالله وتوَّعدت ..
أبانت للكونٍ وأوضَحَت ..
حاشرت الكَلِمَ فحَشَرَت ..
منها كلمات كُتبت بمغزى، كجبلٍ .. وخشوعٍ .. به تصدَّع ..
ومنها كلمات تُرجمت بمعنى، كإنسانٍ .. وإيمانٍ .. به تورَّد ..
أو كإنسانٍ .. وإلحادٍ .. به تورّط ..
وكلٌ منا ذاكَ اليومَ كلماتٌ صُفِّدت وكُبِّلت ..
وكلٌ منا يوم الحشر قصيدةٌ على هيئتها تُراها حُشِرت ..

ثم أردف قائلاً: القرآن! لا أرى غذاءً للروح يفوقه من غذاء، كم جميـــلٌ أن نقرأ ما قاله الله تعالى مخاطباً إيانا، في قراءته إبهارٌ لا مثيلَ لـــه وفيهـــا انجـــذابٌ لا انفكاك عنه، إنه علاجٌ للروح، وهو عبادةٌ لخالق كل روح.

"فإذا هو محكم السبك، متين الأسلوب، قويُّ الاتصال، آخـــذٌ بعضـــه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دمُ الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مُفرغة !وكأنه شِمْطٌ وحيد وعِقْد فريد يأخذ بالأبصار، نُظِّمت حروفه وكلماته ونُسِّقت جمله وآياته وجاء آخره مساوِقاً لأوله وبدا أوله مواتياً لآخره"..

الزرقاني ..

قلت: قال تعالى في سورة الكهف **﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّـــي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾** (109).

أيها البحر! اعتدنا كونك الكبير، ولكن أرأيت إن واجهَ كَمُّك كـــمَّ كـــلام القدير؟ ألن تُسحَق وتَستَحِق مواجه التَحجيم؟

وكأنّ قطرات مائك هنا جيشٌ يسكن وجه الأرض، وله من المدد من أنهارها ومن سيولها وحتى إن أردتَ سيخرجُ لك من كهوفها. فإن كان وقت المداد لكلام رب العباد، ستنادي الحشد وتستدعى المدد، ولكنك ستنفد وستنفد ما معك مـــن حشود وإن جاءك كمثلك مدد.

قال: فلنسابق إذاً كما قال تعالى في سورة الحديد **﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِـــرَةٍ مِـــنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** (21).

واعتادت "سابقوا" الإدلال على مفهوم السباق والذي هو بمكانٍ وزمـــان، والذي هو بخط نهايةٍ وفائزٍ واحد. ولكنها وردت هنا بمنـــــزله أكـــبرَ وأجَـــلّ، السباقُ هنا سباقٌ لا خط نهاية له، فنهايته الأجلُ ومسرحه الأمل، السباق هنـــا سباقٌ لا يفوز به واحدٌ فقط فكل من دخل مضماره فائز. والجائزة هنا تفـــوق أكوام الحديد وتتفوق على الحلي الثمين، فكيف لا والمغفرة منـــه للمتســـابقين، والجنة منه أعدها للمتقين، فلنتسابق لعلنا نكون مِمّن يشاء، إنه هو ذو الفضـــل العظيم يؤتيه من يشاء.

فانتفضت على نفسي انتفاض شعبٍ ثائرٍ على فرعونه، أعلنت أني معه للفجر سأقيم، وعلى الصلاة إن شاء الله سأستقيم.

تذكرت قوله تعالى في سورة المائدة **﴿وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَـــرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَـــا آمَنَّـــا فَاكْتُبْنَـــا مَـــعَ الشَّاهِدِينَ﴾** (83)، تُرى متى امتلأت؟ قد بدأت تفيض!

بدأت القصة قديماً، فأعينهم ينابيع دمعٍ أصيلةٍ متجذرةٍ في العمق، فلما سمعـــوا بعض ما أُنـــزل إلى الرسول مما أنـــزل، تغذت ونمت، بوركت فكَبُرَت، وبـــدأت تتفجر، وبدأت تفيض، فيا رَبنا اكتبهم معهم فقد أسقى الدمعُ أعينـــهم فلعلـــهم يكونوا شاهدين.

كيف أن فصولاً تعاقبت في هذا الصباح؛ دعوةٌ فإغضابٌ فإرضـــاءٌ فحـــوارٌ فتوبة، فلعلّها تنجم عن التزامٍ، فسبحان الله.

قال تعالى في سورة الروم ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (17)، وكأنها وصفة دواءٍ لداءٍ وإنّا لا نريد حرمانه، فداؤنا هذا فيه أحلامٌ تؤول لآمالٍ وتوصلُ لجنات، ودواؤنا هذا أذكارٌ كلها أسرار، تُظهر عظمةً من الله توحي بإيماننا به، فيها شكرٌ على الإيجاد، فيها حبٌ وحنان.

"وحين تصبحون وحين تمسون" الغرض منها الإحاطة، إحاطة تغلّفنا بالأمان، دواؤنا هذا لا ضرر بزيادته، فالخلد بالمجد هو ما يكون بزيادته.

سبحان الله! إن أقدمت على طرق باب بيت أحدهم قام ملبياً لك من يفتحه، لابد وأن يُفتح الباب المطروق، لابد وأن يُفتح الباب المطروق، وكمثله فمن أراد طرق باب الحب بصدقٍ ستُلبي له دعوى طرقته إحداهنّ بإخلاص، ومن أراد طرق باب الصداقة بالمحبة قام أحدهم وفتح له الباب بالإخاء، وكذلك من يطرق باب الله بإخلاص سيبعث له من يسانده بالتوبة.

إنها النيةُ الصادقة.. إنها هي الطرق على الباب..

المُقتَطَفَة الحادية عشرة ..

دَعوة على الإفطار

دَعوة على الإفطار ..

اعتاد صديقي الساعي ودَّ معدتي كما اعتاد ودَّ قلبـــي، كم هو ودودٌ هـــذا الصديق، أجمل ما فيه روحه المبادِرة، المبادرةُ عنده درسٌ وأتقنه، فرضٌ داوم عليـــه فأجاد كل تفاصيله، كأسٌ شربه كماء فَتَشَرّبَه جسده كدماء.

بدايةً أبدى قلبـــي دقةً معلناً فيها أن صديقي يود مكالمتي فالتفـــت للـــهاتف التفافةَ من يلتقف سماعته قبل رنينها على الملأ، وصدقاً كانت المهاتفة!

هاتفني قائلاً: أخي هل لك بقبول دعوةٍ مشروطة، ما كان لصديق موسى أن يقول عنها مرفوضة؟

قلت له: شَرطك على قلبـــي خير ودعواتك فحواها دوماً الخير كل الخير.

قال: أمّا الدعوة فهي على الإفطار وليمة، وأمّا الشرط فهو الصيام، والصـــيام فضيلة.

قاطعته قائلاً: الصيام؟!

فأتبع قائلاً: نعم الصيام، الصيامُ إنتصارٌ نواري به كنوزنا الدنيويـــة الثـــرى، كنوزنا هذه حين دفنها كلها طلباتٌ دفاقة مليئةٌ بشهواتٍ فياضة، وبمواراتها نودعها ظناً منا أنها بلا رجعة. ولا أعرف غير الصيام من هو قادرٌ على بعثها مـــن ثراهـــا حية، هنا البعث فعلٌ فضلاً عن البعث يُصيرُ الحال لحال، فدفننا للشـــهواتِ اليـــومَ كنـــزٌ من الحسنات غداً. حتى وإن كان كمّها عندنا اليومَ كمٌ غير معلوم فلنتـــيقن بين يديّ الله نحن المأجورون، فسبحان من فرض علينا فريضةً إن نحن امتثلنـــا لهـــا ووارينا كنوزنا بها، أكسبتنا هالة تُمطر علينا سكوناً روحيـــاً، وراحـــةً جســـديةً وهدوءاً نفسياً.

سكب لي مزيداً من كلامه في قعر قلبـــي بلا كيل ولا مكيال حيث قال: في الصوم معنى من معاني إجادة الطهي، فرشَّةٌ من الحرمان لقَدرٍ من الوقت، تطفـــي

بنكهة اللذة على قِدرٍ من الغذاء لأمد من الزمن، وبه تتحد رائحة الجوع التي تفوح خارجةً من الفم مع ما يبوح منه من الدعاء والشكر لله على أن منَّ علينا بالعديد من النعم. ما الصوم إلا وحيٌ من الله للنفسِ أن لكِ حداً فالتزمِ، أن لك قائداً فاثبتِ، أن لكِ أخاً فانصرِ، أن لك رباً فاعبدِ.

"والصائم برفضه الطعام يكون قد عرف نفسه ورد لها اعتبارها بصفتها روحاً لا تأكل ولا تشرب"..

مصطفى محمود..

وبعد انتهاء المكالمة اتفقنا على أن يدفع هو من ماله وأن أدفع أنا من كلماتي، اتفاقنا كانت وثيقته الثقة، وكان خَطُهُ التراسل عن طريق القلب، فلا داعي لهاتفٍ ليخبرني بما يطوف بفكره؛ وإن كنت أحتاجه لمعرفة ما يجول على لسانه.

تساءلت ونفسي عن ما يدور بوجدانه؟ أجلسني تساؤلي على أريكتي السوداء جلسة المحتارِ لما يختار من مفرداته، كما يجلس من يحتار لاختيار قطعة من ثيابه.

الصيام، قطعاً ليس المقصود بالصيام مبادلة حسابه في الدنيا عليّ، بحساب حسناتي في الآخرة إليه، طموحه أبعد ورؤيته أشمل، إنه يريد أن يدخلني في طوق إيمانياته لعلنا نرسو معاً على شطئان الجنان غداً، كانت فكرته المشاركةُ بفعلٍ إيمانيٍّ، عسى الله أن يشركنا معاً بعد الموت في دعوة مشابهة بمكانٍ مختلف، إنه يدفعني للجنة في الآخرة كما اعتاد أن يدفعني للقمة في الدنيا.

كم أنت ثمينٌ أيها الصديق! حُبك لي بطموحٍ مختلف تأخرت فيه قيمة الدنيا لحساب الآخرة، إنك لَتَخلُق من اللقاء العديدَ من الآفاق، أَجَدتَ استثمار الزمن، كيف أنت! إذ فكرتَ، ثم دَبرتَ، ثم جعلتني وإياك نفعل.

جلست وإياه على مائدةٍ خشبية، ربّاهُ كم أعشق الخشب! إذ تعود جذور عشقي له كونه يذكّرني بالحياة؛ حيث إنها فصلٌ مسرحيٌّ وسينتهي أو ينبوع ماء وسينضب، هي ستتحلل لترابٍ ونحن سنؤول كما ستؤول إليه.

الشجرة كالإنسان لكلاهما سِقاءٌ ولكلاهما غِذاء، نحن نأكل من ثمرها وهي تأكل من عمرنا، عروقها الخشبية تحاكي تجاعيدنا الجلدية، أرى في ملامسة الخشب

ملامسةً لكدِّ العديدين من مزارعٍ وساقٍ وقاطعٍ ومُصَنِّع حيناً، وحيناً أرى فيها ملامسةً للطبيعة، وكأنها تطفي عليَّ نكهة البرية حيث نقاء الهواء وصفاء المياه، حيث الورود والشجيرات لا الحروب والمؤامرات، حيث الحريةُ اللامحدودة، حيث الحب فطرة والإيمان حياة، حيث الصداقة أخوة، والعداء انفصال بسلام.

أما تداخلات أغصانها كتداخل الأنساب بيننا نحن البشر، ففي كل غصنٍ مجموعةُ أوراق، وفي كل أسرة مجموعةُ أفراد، فأصل اتحاد الأغصان بما فيها من ورقٍ لخلق ظلٍ مديدٍ يُفيد، وأصل اتحاد الأنساب بما فيها من أفرادٍ لنشر دينٍ قويمٍ عظيم، هي تسعى لرسم مشهدٍ فيه الكثير من البراعة، ونحن نسعى لإقامة حضارة فيها من الإبداع والريادة.

لعمري لاقتلاع شجرةٍ من جذورها من الأرض أهونُ من اجتثاث قلب من أحب الحياة عليها، فجذورنا الدنيوية أعمقُ من جذورها وأكثر تشعباً، تتشعب جذورها بحثاً عن ماءٍ وغذاءٍ فقط، وتتشعب جذورنا بحثاً عن جاهٍ وسيادة، عن سطوٍ وسيطرة، إضافةً لما تسعى له الجذور من الشجر، طموحها الإفادة وطموحنا الخلود، تحيا مع الجمع، ونحيا عليه.

تذكرت قوله تعالى في سورة الأعلى **﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾** (16-17)، فالحياوات كعددٍ اثنتان؛ أمّا كوصفٍ هما كُثُر، فمنها بضنك ومنها بفردوس، ومنها بويلٍ ومنها بسرور.

وَجَبَت الخطوةُ علينا للأعلى، فهُنا الدنيا وهناك الآخرة، ثم هُنا الآخرة وتلك هي الدنيا، حبنا للهُنا كبير، وإيثارنا له كثير، ولكن الْهُناك أدوم، وخيره أنقى وأبقى، فبأي الأوصاف سنصفها (الآخرة) يوم نقول تلك هي الدنيا، أبفردوسٍ مسرورين أم بضنك مولولين؟

كانت المائدةُ مربعةً صغيرة، كم أحب الأشكال الهندسية! فهي وحدها التي تفرض الأنظمة وتطبّقها كمنظومة الزوايا، وتتعايش في دستور صاغته، كدستور الإستقامة والذي خُطّ من قِبَلِ هيئة الأشكال والأقلام، كأنها تقول لي أن هذه أقصرُ مسافة ممكنة بين قلبيكما، وكل شيئ عليّ على نفس المقربة منكما، إذ تمكنني أن أُقَدِّمَ له كل ما عليها وأن أتشارك معه كل ما ليّ منها، فأدفع لمعدته بقدر ما دفع لقلبي.

كانت عليها أدواتٌ معدنية، ملعقةٌ وشوكةٌ وسكين، نظرت لها نظرة المُقارن مع البشر، فالهدف من هذه الأدوات هدم ما تم بناؤه في الطبق، والهدف منا نحن البشر أعمار الأرض بما فيها من المدد.

عادةً ما تعمل الملعقة وحيدة، أما الشوكة والسكين، فعادةً هما مترابتطين، وكذلك الإعمار في الأرض، فجزءٌ منه يقوم بالإنسان على حدى فيبني وحيداً بنفسه ولها وينهض بها، ومن الأعمال ما يحتاج تكاتفاً من البشر فيعمل معهم ولهم.

كل أداة لا تغني عن أداة، وكل فرد من البشر لا يغني عن بشر، فليكن العامل ملعقةً بالعمل تارةً وشوكةً أو سكينةً تارة أخرى، وليكن العامل من المعدن فوالله لن يكلّ ولن يملّ أبدا، فليكن صلباً مثله لامعاً بأدائه، مؤدياً بأكمل وجهٍ كل مهماته.

كانت أطباقها دائرية، كأنها تقول لي أن لا بداية ولا نهاية عندي ههنا، أتقصد الأطباقُ أن لا بدايةً ولا نهايةً لوجودها الدنيويّ؟ أم لحب من هو أمامها؟ إن كان لوجودها، قد نسيت أن نهايتها تكمن بسقوطٍ من مرتفع بسيط أو بارتطامٍ مدوي مع آخر، وإن كان لحب من هو أمامها فالحق معها، فالحب إن بدأ تُنسى أوقات بدايته، وإن اشتعل وَهجُه لن تُقّدر نفسٌ نهاية أجله.

كانت أطباقها بيضاء، وفي الأبيض يتنازع فِكران: إما أن لا لونَ له ليتباهى به فيبقى وحيداً بلا لون كمشردٍ بلا مأوى، أو أنَ لا لون يليق به فيتشح بالبياض فلا يرضى بأقل منه. إلاّ أن في الأبيض حساسيةَ شديدة كحساسية المثاليّ من البشر، فجرح الأبيض ينزف سواداً ظاهراً صعبٌ زواله، وجرح المثالي كجرح ملاكٍ لا عهد لنا به بما ينجم عنه نحن البشر.

"دائماً ما كنت أتساءل ماذا لو اختفى اللون الأبيض من الكون"!

قطع موسى أفكاري مُستَلاً منديلاً من صندوق المناديل فجأةً، كمن يستلّ سيفه من غمده على حين غرةٍ في بدايةٍ لمبارزة، وقام بثنيه بطريقته اللطيفة المعتادة، نظرت للصندوق وتراءت لي فيه فكرةٌ تحاكي حياتنا، فالحياة كصندوق المناديل إلاّ أن السحب منها إجباري، ففي كل يوم نعيشه يسحب الزمن منه يوماً ويلقي به في كتب الحساب، فإمّا أن تستخدمه في الطاعة، وإمّا أن تستخدمه في العصيان، سيُكتب عليها ما سَتَصنَع، ولكن لن يُمسح به ما عليه ستندم.

"إنما أنت أيام مجموعة، كلما مضى يوم مضى بعضك"..

الحسن البصري ..

كَتَبَ عليه أرقاماً اتضحت لي لاحقاً أنها تاريخ، كتب كلماتٍ كانت إسمي، إسمه، إسم المكان، كلٌ منها على حدة، كان خطه كالرسم يُجمل فيه المعنى المنشود.

قلت له: هي عادتك التي ما فتئتها، كم تعشق التوثيق وكم تهوى التصوير!

صديقي موسى اعتاد تصوير كل شيئ في حياته، وتدوين كل حدث عاشه في كتابه، تراه أُلبوم صورٍ وتقرأه دَفتراً للذكريات.

قال: كل حدثٍ عشته في الماضي ستحتاجه في مستقبلك، الماضي حِكَمٌ وعبر، فيه أسلوب حياة، الإكتفاء بكتابة تاريخِ اليومِ وحده أو مع بضع كلمات كفيلٌ بإلصاق أحداثه في الذاكرة للأبد. أريد أن أعيش يومنا هذا غداً وبعد غد، كم جميلٌ استذكارنا ليومنا هذا بعد حين من الزمن، كم جميل هو عدادُ الذكريات!

تساءلت مجدداً في نفسي: أيجد في إفطارنا هذا من الجمال ما لا يرغب بفقدانه بعد زمن؟ وكأن الإفطار هذا وليده يريده أن يكبر معنا، قد أراده بشغف وأنجبه بحنان.

همّت بنا ذبابةٌ كان الإزعاج هو جُلّ حمولتها لنا، وها هي بدأت تفرغه، رأيتها مستهمّة كمن أصبحت والعزم كله بيديها لحصد حصاد.

قلت منزعجاً: والله لو كنتِ بساعيةٍ بين الصفا والمروى لما كنت بهذه الهمة. ضحك موسى، وأثناء ضحكه انقض عليها بسرعةٍ بيده، سرعة الغزال بروح الأسد. فقرأت الحشرةُ حركته كحركة سلحفاةٍ بروح النعام، وذهبت وكأن أزيزها صوت قهقهة، وكأن تمايلها تراقص مستهترة.

قلت: ما بالك تضحك؟ الأنها كسبت المعركة؟

قال: لا، بل لأنها أُنموذجٌ معبّرٌ عن فئة من البشر، فكمُّ الإزعاج والأذى من هذه الحشرة التي لا تقهر بسهولة، ككمّه من الإنسان الحشرة الذي لا يصدُّ بل وبكل رعونةٍ تراه يطير من لسانٍ قذر لأذنٍ متعطشة، تراه يسحب من دم هذا ويبثه سموماً في أذن ذاك.

ووالله إنك لترى الجمع له بكاشف إلا أنهم إليه بأكثر من سامع، وباء الغيبة بطعم الإدمان، وطاعون النميمة برسم القطيعة واللاغفران.

قال: أتدري أين تكمن مصيبتي؟

قُلت: أين؟

قال: بروح الحشرة يتمتعون، وبقيمة القذارة يتساوون، عجبي! ورغم هذا لا يخجلون! ألا إنهم برشةٍ من الإهمال يُقتَلون.

تذكرت قوله تعالى في سورة الحجرات **﴿... وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ...﴾** (12).

المتجسس المستغيب ذو شريعةٍ همجيةٍ ونفسٍ دَنية، عَمَله غَباءٌ يمارسه بخفاء، فقد فِطرته السَوية واستبدلها بأُخرى حيوانية. نعم حيوانية! ولكنه منها بمنزلة أدنى وأحقر، فهو رُغم قدرته على الإفتراس يأبى إلا أن تكون وجبته جيفة دنيئة، صَرف قدرته على الإفتراس بالعمل، للإفتراس بالنظر، ها هو يفترس من هُم فوقَه بأعيُنه، ويتطاول عليهم بألسُنه، وهم هناك يُسقِطون عليه قديمَ نجاحِاتهم مشغولينَ عنه بجديدِ إبداعاتهم، إسقاطاتُهم عليه مادةٌ لحياته، فاسقاطاتُهم تَفطِرُ قلبه حُزناً، وتُفطِرُ لسانه كذباً.

أكمل تَجَسُسَك عليهم، وأطلق بلسانك مغانمهم، هنيئاً لك بفريستك الكريمةَ الأصل، وتناولها بحجرتك الدنيئة في القعر، حجرتك تلك الأشبهُ بالجُحر، هداك الله وارتقاك من القعر.

سكت برهة ثم قال: طعامٌ طيب.

قلت: نعم يا طيب.

قال: من على المائدة ماذا تقول في قوله تعالى **﴿قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ...﴾** (100)؟

قُلت: بدايةً هي في سورة المائدة.

ومنها أقول: وكأنهما على مائدةٍ طبقان، وقد حان وقت التقديم، فيُقدم الخبيث نفسه بخبث فتراه طيباً، ويقدم الطيب نفسه بطيب فتراه أطيب، فيتخابث الخبيث فيظهر بطيبة أطيب، ويتطايب الطيب إنه الأطيب.

وبعد أن تم التقديم حان وقت التقييم، فقل أنت يا طيّب هل يستوي الخبيث والطيب؟ فيأتي الجواب من رب العباد أن: **﴿قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ...﴾** (100).

تعجبت من سؤاله! وكأنه يتستر عن كلامٍ تستّر الشمس عن القمر في خسوفه، كان يتلعثم به تلعثم فرسٍ مربوطٍ بلجامٍ لا يستطيع الإفتكاك منه، وكأن فمه يرفض الإعتراف بسرٍ لجأ إليه نازحاً ثم استوطنه فلا يريد الرحيل.

سألته: ألا تراني مستمعاً؟

قال: بل أراك مستقرءاً.

قلت: أرح نفسك، فأرق دماء سرّك وبُحْ به على المائدة.

سكت برهةً ثم قال: ماذا ترى في كلمة الحب؟

فأجبته بسؤاله نفس السؤال خجلاً من عجزي عن مثله كسؤال..

فقال: ما هو الحب! أهو أن تُظِلَّ الآخر بمظلةٍ من عقلك فتقيه الكون نظراتَه وهمساتَه؟ أم أن تُركبه مركبةً في قلبك مملكاً إياه مِن حَوضٍ فريدٍ إليك قد تم تمليكه؟ أهو أن تتخذ من وصفة مشاعرَ مشتعلةٍ لا تؤول لرمادٍ أبداً شهيقا لا يتبعه أي زفير؟ أم أن تَخلُطه عجيناً من مكونات الكمال المُقتَطَفَة من حدائق الجمال لا يشوبه أي قبيح؟

ما الحب إلا أعلى المراتب من الجنون، إذ أنك تُفقِد نفسك تاريخها جُلَّه مفسحاً المجال للقادم من ناح المجهول، وتربط بخيوط أشواقك أطراف مستقبلك الحالم بنسيج الأحلام المُزهرة ما بين الورود، وأن تستغيث بالله دوماً طمعاً بمَدَدٍ لفترة التقارب المأمول.

أتدري ما هو الحب؟ هو أن تعتزل نفسك رغباتها مستوطنةً رغبات نفسٍ أخرى، وأن ترفض روحك استقراراً يبعدها عن تلك الأخرى، هو أن ينتفض ما دون الجِلد فيك مشتعلاً متوهجاً بنور شوقٍ ومنكفئاً بظلام موت.

الحبُّ حديثٌ وُجد له آذان، أحداثٌ فُصِّلَت لأجلها حياة، تفاصيلٌ صُنِعَت لأجلها ذاكرة، لباسٌ خُلق له جَسَد، إنه لصحوةٌ من سباتٍ شتويّ لشتاءٍ قلبيّ أخير.

حياةٌ بلا حب كصفرٍ وحيد بلا أرقام، فإن بُعِثَ الحُب في حياةٍ طرح الصفر مقاماً معلناً قيمةً عدديةً واصفةً له بكل ما عندنا من الكلمات.

ثم أتبع قائلاً: وأنت؟

كان كلامه مثيراً للساني ليستعرض ما فيه فقال مني اللسان: الحبُ! الحبُ كلمةٌ تُقرأ وأراها رمزاً عليه أن يُفَك، فالحب رمزٌ من حرفين، وبكل حرفٍ كلمة،

فالحاء جاءت من الإحتلال والإحلال، والباء جاءت من البقية والبقاء، وما هدفه إلا أن يكون رباطاً يُخلق مع الزمن ويموت في الأبد، إنه الحب.

أما في الإحتلال فقد قيل: ما الحب إلا احتلالٌ للجسد فبه يَنصَبُ الآخر فينا صَبّاً فينتصبُ، يحتلُ فيسيطر، يسيطر على الفم فلا يخرج منا كلاماً إلا إليه وإن غاب فلا يخرج كلاماً إلا عنه، وأراه يسيطر على العين، فإن أغلقناها حلمنا به، وإن فتحناها رأيناه بها، وأسمعه يسيطر على الأذن، فإن عمّ صمتٌ ذكرنا حسّه، وإن سُمع صوتٌ سمعنا قلبه، وأما اليد فلا أراها تصافح غيره، فإن غاب صافحت ذكراه، والقدم لا أراها تسعى لغيره، وإن فلّ لا أراها إلا باحثةً عن لقياه، أوبعد كلّ هذا أليس الحب رمزاً للإحتلال؟

أما في الإحلال فيقال: ما الحب إلا الإحلال، فتتسرب شخصيته فينا رويداً رويداً وكأننا نستنشقه بخاراً فيتكثف فينا، فكنت سابقاً أريد، والآن أريد ما يريد، كنت أرغب، والآن أرغب بما يرغب، فيتم إحلالٌ للرغبات مصحوباً بإحلالٍ للطلبات والأمنيات، وكأنه إحلال لروح الآخر في الجسد. فإنك الآن ترى بعينيه وتتكلم بشفتيه وتسمع بأذنيه، تترقب أفعاله كأمنيات، تسترق صوته وكأنه للروح نسمات، فكل ما منه تريد، وكل ما تريد لنفسك ما عدت تريد، أوبعد كلّ هذا أليس الحب رمزاً للإحلال؟

الحب رمز بزمرة رموز أقرأه إحتلالاً قصد البقاء للأبد، وإحلالٌ قصد البقية من الآخر حتى الفناء، هو اجتياحٌ للسابق، إعمارٌ للمستقبل، طموحه البقاء وإزالة ما مضى من الوحدة وما كان بها من الشَقاء.

وكأن في كلامي طاقةً لروحه المشتاقة المُنهكة، فأراه الآن أصفى ذهناً، وأكثر توهجاً، لعل جوابي أراح سِرهُ من سباتٍ شتويّ في سرير فؤاده الدافئ.

تساءلت نفسي: أيكون قلبه قد أُختطف من قِبل فتاة؟ أم هي نظرةٌ منه اخترقت ستراً فتعلّق بأخرى؟ ما بين اختطاف منها أو استراق منه، إنه الحب.

ولكن أهو في مراحله الأولى؟

ما البدايةُ في الحب إلا مجرد انحناءة من كلا الروحين باتجاه الأخرى استعداداً للإلتقاء، ما هي إلا صعود العيون لمركب الأحلام في عالم الخيالات، ما هي إلا عتبة جميلة لحقبةٍ جديدة صعبةٍ وسعيدة.

أم أن المرض قد فتك بقلبه فأصاب عقله؟ فالحب عند فتكه بالروح مرض نفسي يصيب القلب فيسيطر على البصر، يغيّر المواصفات ويبدّل المقاييس، الحب عَمَى يهدم من الواقع ويبني في الخيال، الشفاء منه سقم والبقاء فيه شقاء، فالشفاء منه وحدة وعزلة، والشقاء فيه أن لا قدرة على العودة لما مضى من الحياة، إنه داء وإنه لدواء.

لن أغوص في بحر سرك يا موسى لعلك تكمل ما بدأت به اليوم في قصةٍ أخرى.

ابتسم صديقي، (لعله كشف ما قالت نفسي أمام نفسه)، قال منتعشاً انتعاش من كان به نعسٌ فألقى بجسده في النهر: أراك فتكت برمز الحب كسلاحٍ فتاكٍ فتك في موقعة جريمة، فما تقول بالحب إن كان منوطاً بالله؟ ما تقول بأحبّك ربي؟

بُهت قلمي وتجمدت أطرافي؟ كيف لي بوصف جمله مُجملة؟ كيف لي أن أُعبر عن عشقٍ غامض، حدوده اللامحدود، وطموحه ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، بل أعلى من ذلك وأجل؟

سألته مذهولاً: كيف ترى أنت أن يكون؟

قال: قال تعالى في سورة المائدة ﴿... يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ (54)، يحبونه: حبّنا حبٌ عهدناه، يصيب القلب فيعيا، ويصيب النفس فتحيا، وبه يُجَنَّد الدمُ تحت راية القلب، فيحتلّ الجسد ويثبّت راية الحب، ولحبّنا له أعذارٌ كثيرة؛ منها أنه خالق الخليقة، ومنها أنه من بسط لنا البسيطة.

يحبّهم: حبّ لم نعهده من قبل، هو ما يجتاح الروح والجسد فيعلّقهما معاً نحوه، فلا شعور بعد ذلك من شعور، هو وصفة وصفت للمؤمن ليصفى، طموحٌ وجد لكل طَموح، هو أمل، هو حياة، هو ما يحتكر قلوبنا وكأنه يفترسها من على مائدة، أحبنا حبٌ وحبه حب؟

يا صديقي قلها: "أحبّك ربي".. قلها بقلبك، أكتبها بدمعك، وأقرئنيها بقلمك.

تساءلت: كيف أصنع بها يا موسى؟ ثم كيف أصنع بنفسي ظننت فيك ظناً دنيوياً وها أنت تثبت لي مدى فكرك اللادنيوي؟ سأسعى بها بين كلماتي لعلي أعود منها لك ببريد.

أيكون هذا ما يجول بوجدانه؟ أهو دعوى لقلم قلبي أن يبارز كرم جيبه؟ أهو دعوة لإيقاظي من سبات قطيعة الحبر عن طريق وليمة الخير؟

لقد فاز كَرَمُه وسيفوز بإذن الله قلمي.

وأما أنا فإني أغرق بما أغدق علي من فكرٍ أثمر لي حسنات وأفاض مني بكلمات، قلت قاطعاً ما ألقى على كاهلي من فرضٍ: بارك الله لك، لك الشكر أن هديتني لصيام اليوم.

قال: لا لست بأنا من عليك أن تشكر، قال تعالى في سورة القصص **﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** (56).

فاجأني جوابه وكأنه انتظر شكراً مني منذ فصل من الزمن.

سَألتُ نفسي: لَمَ يذكر اسم السورة ولا يكتفي بما فيها؟

فأجاب قلمي: لكي تكتب من وحي ما قد بدأ به.

قلت: وأي قَصص، هنا القصة قصتان، قصةٌ لتهدي وأخرى ليهدي، عُرّفت الهداية بأنها قصةٌ لطريق الصواب، وإني لأراها قصةً لرحلةِ زراعة، وكأنك بـ (تهدي) تزرع البذور، البذور هنا ممن تُحب، البذور هنا ممن عَشقت، ولكنه بـ (يهدي) يُنبت، الإنبات هنا هداية، فالبذور هنا ممن يشاء، قال تعالى في سورة الإنسان **﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ...﴾** (30)، لَعمري إنها لقصةٌ جميلة، قصةٌ تختصر جمال القَصص، فالقصة منه وهو أعلم بالمهتدين.

الحمد لله أن هداني إليه، وأن أهداك إلي، وأن هدى قلمي لكلمات، وأن أهدى لنا عن طريقك بحسنات.

صدقاً أكان الدافع صديقاً، أخاً، زوجاً أو إبناً، كم هو جميلٌ تناول طعامٍ مدفوعِ الثمن!

طعامك يا صديقي جُبل بتعبٍ وكَد، أسقَيتَه السهر وسيرته سبيل الإهداء، إنك لتنجز إختيار الله لي بأن أوحي لك بي، كم جميلٌ أن انتقيتني كزهرة من بستان أصدقائك.

طعامك يا صديقي مختلف لم أذق مثله قط، وإنّي فيه مشغول، شغل الباني لا الهادم، شغل الكاتب لا القارئ أتوق لما بعده، أشتم فيه رائحة يدك التي اعتدت مصافحتها بحرارة، وكنت أغتسل بيديّ من بعد مصافحتها لك شوقاً إليك أثناء

غيابك، أرى في طعامك من كرم قلبك، كما اعتدت رؤية جودِ عينيك عندما تسكب لي من مشاعرك أثناء مخاطبتك لي مازحاً أو غاضباً.

في الدعوة على الإفطار يتنوع أشكال الحب كتنوع الأطباق فيها، وتتشكل تفاصيله بِتَشَكُّل مكوناتها، الدعوة على الإفطار هديةٌ أعتى من كل الهدايا، ففيها بذل مالٍ وحبٍ وفكرٍ، فيها انتقاءٌ لمكانٍ وزمان وأحاديثَ كلام.

انتابني شعور من تذكّر من بعد عهد له بالنسيان، ألا يدعو الأب أبناءه كل يوم على وجباتٍ أقلها الثلاثة؟ ألا يستحق الشكر والإمتنان يومياً وآنياً، دوماً وللأبد، ألم يكن الجسر الواصل بين الرزق من الله بلا كلل؟! ألم يكن نهر العطاء الصافي بلا أي نَضب؟!

كم أحبّك ربي، ألهمته إلهاماً فكان دعوةَ إفطارٍ على وليمةٍ من الحب، ملهمةٌ للفكر ومدعاةٌ للتدين، إلهاماً كان صورةً لمحبتك لي فأوحَت لي أن أبذل المزيد من العمل، أن أقوم فأصلي وأذهبَ فأزكّي وأتيك فأصوم، أن أعمل وأشكر وأعبدك وأؤمن.

*** يقال أن هذه المقتطفة كتبت قبل المقتطفة الخامسة إلا أن الكاتب أرجأ ترتيبها لأسباب مبهمة احتفظ لنفسه بها ..**

رسالة إلى الله (4/3)

(الأسبوع الثالث)

في سبتِ أسبوعي الثالث رأيتُ موسى صاعداً السلم للدور الثـــاني، ألهمـــني الكتابة فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه سلم يصعد بـــي للعنان، طريقه واحد، يصحبني أَمُرُّ معـــه على كل خير وأجتنب معه كل شرٍّ، فيه أرى منك العظمة، وفيه أتوق لما عنـــدك من الرحمة، حتى وإن كُنتُ فيه وحيداً فإني يا رب سعيد، أحبّك ربـــي..

وفي الأحد عاود موسى وشارك بمسابقةٍ شعريةٍ، فخطر لي مرةً أخرى فكتبت:

أحبّك ربي..

أحبّك حباً وكأنّه مسابقة، فيها أنتظر منك مكافأة، فاشتراكي بها منك هبة، وهدفي بها عندك جنة. تتسابق بها كلمات البرِّ مني خروجاً، وتتبارز لها أفعال الخير بي نفاذاً، أسابق لعلّي أستبق الصف، أحبّك لعلي أحترف الحب، أحبّك ربي..

في الإثنين ركبتُ وصديقي مركباً في البحر، ركبنا به كل موج، فماج حبر قلمي في مركبه فكتب:

أحبّك ربي..

أحبّك حباً وكأنّه مَركِب أركبه بارتقاءة، فيحطني بأمانة، ويجنبُني الملامة، أواكب به كل منفعة، أداهم به كل مفسدة. وفيه من الإفادة على صَحبي، وفيه من الإحاطة لأسرتي، به أباهي نفسي على عدوي، وبه.. أحببني يا ربي، أحبّك ربي..

وفي الثلاثاء تأملتُ القمر وكان بدراً، وكأنّ ما يُعكس به من نور أنار لي أن أكتب فكتبت:

أحبّك ربي..

أحبّك حباً وكأنه قمر ينير لي ظلام الدنيا مما يوحش، يبعد عني شرور عملي مما يفزع، وإن غاب بعفل منكري أظهرتَ لي شمساً، والتي هي بضعٌ من حبّك لي، تقول لي فيها إني معك فلا تنجرف، فرحمتي وسعت كل شيء؛ أحبّك ربي..

في الأربعاء مع شدة الشمس نظرت اتجاهها فأرسلت لي بأشـــعتها الكـــلام فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه شمسٌ تنير قلبـــي كما تُنَار الأرض بالشمس، وإن أفَلَـــت بفعل خطيئتي أظلمت أرضي، وبعثت لي قمراً يعكس من بعض حبـــــي إليـــك، يذكرني أني أختلف وعن طريقي إليك أنحرف، فأرتدّ أنا للحق، وتعـــاود وتطلـــع الشمس، أحبّك ربـــي..

وفي الخميس لمحتُ رايةَ وطني ترفرف عاليةً بشموخِ جبلٍ راسخٍ، أوحـــت لي فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه سارية، فما كان منها في الأرض توطد في قلبـــي كالوتد، وما كان منها في السماء أَنذَرَ كالحَكَم، فإن أقبَلت نَسمات الرضا على الفعل رفّت بكل رويّة، وإن هبّت ريح السُخط على الفعل رفّت بلا عقلانية، أحبّك ربـــي..

في الجمعة مع هطول المطر على الأرض، وكأنها دموع السماء على رذائل من الأرض ألهمتني الكتابة فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه غيث يتساقط عليَّ يغسل من جسدي كل ما علق به مـــن الدَرَن، يُطهر من نفسي كل ما جال فيها من العبث، أحبّك ربـــي..

المُقتَطَفَة الثانية عشرة ..

ما بَينَ رَبيعٍ وخَريف

ما بينَ رَبيع وخَريف ..

إنه جائعٌ لا تلوموه! أنتم أيها البدناء، حيث وباءُ الفراغ وكمال الغذاء وتخمة الجيب ومتع الحياة، ماذا تريدون؟ إلى ماذا تنظرون؟

تنظرون للجائع نظر الطاهر للقذر، حاقدين عليه حقد المكلوم بمقتل أبيه، مشفقين عليه تناظرونه كما يناظر أهل الجنة أهل النار، أتعتقدون أن السبب يكمن به "هو"؟ أتعتقدون أن عليه سد جوعه بالصمت؟

عفواً! فالصمت ليس غذاء ولكنه لأمثالكم دواء، دعوه يصرخ فالصراخ يشبعهُ كرامة، كما يشبعكم الصمتُ ذلّ، إذ يعود لبيته فيقول لابنه لا تحزن أحضرتُ لك وجبةً من الصراخ فهذا ما لديَّ، وأمّا هم فلديهم المزيد، لقد سمعت أنهم أَشبعوا أنفسهم غذاءً ووزعوا علينا ما عندهم من عواء.

عذراً أيها الجائع؛ أنت عند الله من تملك المزيد، أنت عند الله ستفعل ما تريد.

لا! "اللّا" كلمةٌ قد تكون إرهاباً، وللإرهاب حكمٌ ومحكمة، وقد تكون مؤامرةً، وللمؤامرة حلٌ وحلها بمؤازرة، وقد تكون جوعاً والجوع كفرٌ وحقدٌ ونكرانٌ وموتٌ للضمير، فأحذروا الجائع ولا تلوموه، إحذروه ولا تلوموه، ولا تتناسوه إذ قال صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" رواه مسلم، فلا تتناقلوا موضوع ظلمه لمستقبلكم الباذخ بإنه حرام، فخذلانكم واستحقاركم السافر له حرامٌ وحرام، ولا تُغالوا بأنّ دماءكم "النقية الطاهرة الشريفة" عليه حرام، فعرضه وماله عليكم حرامٌ وحرام، مدّ يدك لجيبك أو أدخل لسانك لحلقك، فإنه جائع لا تلوموه.

إنّها الشاميّة..
أمةٌ تَخبز عجينها بدماء..
أمةٌ مات بجوارها من كان فيه وفاء..
أمةٌ أُستبدل جوارها بجدرانٍ حصراً للوفاة..
أمةٌ بصبرها فاقت الأمم البشريّة..
أمةٌ أكسب ما دونها من الصفات الحيوانيّة..
أمةٌ كانت تكنى الشاميّة..
أمةٌ أضحت وحدها ما تبقى من العربيّة..

للشـــــــــــــــام ..

أيها السادة العقل والقلب والضمير، إنّه من هناك لَيؤتى بالخبر، فعذراً منكم أيها السادةُ الثلاث، فليس من هنا يؤتى بالخبر، فأخبارنا هذه مدفوعة الثمن، جزءٌ دفع بمالِ أهل الديرة، وجزءٌ دفع بمالِ أهل الحقد والضغينة. من هناك يؤتى بالخبر، حيث القاتل مرئيٌ وليس بعقولنا الشخص الوهميّ، فالقاتل هذا سكّينه حادة ويده كلها حقدٌ كافرة، قد يبدو هنا لغيره بصورة مغايرة، بهيئةِ رجل ذي يدٍ نظيفةٍ ناصعة، إلاّ أنّ الحقيقة ماكرة، وأخوّته مع الشيطان للعيان فاضحة.

فأوقفت ذلك العربيّ إيقاف نيزكٍ بجسدٍ أرضي، استوقفتني فكرةٌ أنّي لم أستوقفه منذ زمن، فهو الذي بجسده هنا وأجساد أهله هناك، وهو الذي روحه هناك وأرواحهم أيضاً هناك ولكن ما بين أرضٍ وسماء!

رأيته كساعٍ للبريد، فحمّلته طروداً فيها ما بقي من شجاعتي عساه يبدلها بأخرى من صبرهم، زرعت بيديه بضعاً من مالي لعلّه يثمر بضعاً من آمالهم. وكأنّي رشوته لعلّه يجيب بضمير، فأمطرته بوابلٍ من الأسئلة، فرماني بالصاعق من الأجوبة.

قال العربي: هم هنالك يقتلون، بعضهم بالسكين يُذبح، وبعضهم بالردم يُدفن، وبعضهم بالخوف يشنق، ولكن كلهم مؤمنون، هم عابدون قانتون صابرون، بَثّ لي من عينيه صُور الدمار، ومن فمه أذاعَ لي صوت الإعدام،

وبِصَلاته تلا صلاوات الأهالي والأبناء، وإخوتهم ههنا ينظرون، ينظرون وينتظرون، انتظارهم ما بين دورهم هنا بالبلاء أو خلاص من هم هناك بالفناء، هنـــاك هـــم يستغيثون وهنا هم يتفلسفون.

قال لي العربيّ: لا تيأس إن الله معنا، قال تعالى في سورة إبراهيم **﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْـهُ الْجِبَـالُ﴾** (46)، قـد تستغرب أن يكون للحسن ألف قبيح، وأن يكون للأسد ألف ألفٍ من القطيـع. أتستكثُر أن يكون لله أمةٌ أقلها مليون شهيد؟ لا تيأس أيّها العربيّ، فأرضـنا أرض مقاومة، أرضُ عزٍ ومفاخرة، ومقبرةٌ للمؤامرة.

فأعلن السادات الثلاث أن تتآخى روحي مع روح ذلك العربيّ وأن تتعـانق دعواتي مع دعواته، وأن يعتزل هو انتظارنا وأن أعتزل أنا أخبارنا.

يا ليتني غذاءً أبني نَقصَ سُفَرِهم..
يا ليتني دماءً أروي عَطَشَ شَرَايينهم..
يا ليتني أعضاءً أُعوض أعضاء أجسادهم..
يا ليتني رقماً أُساند سِجل شُهدائهم..
يا ليتني رجلاً أقول لا لطغاتهم..
يا ليتني شاميّ أفخر بكوني بشِيَمهم..

للشـــــــــــــــام ..

إنّها ما بين ربيعٍ وخريف، قد يكون الربيع ربيعاً وقد يكون الربيع خريفاً، قد يكون مؤامرةً أو زيفاً، وهماً أو خيالا، وقد يكون حقيقة، قد يكون!

ولكنّي أكيد أنّها مشيئة الرب النافذة، باطنها حكمةٌ وإن جهلها الجاهلون، فالأمر مدبّرٌ من المهيمن فقد قال في سورة السجدة **﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾** (5)، جهلـك

أيها الجاهل وباءٌ فعليك به، اصرف نفسك عنّا إنك لتصرف نظرنا عن حُكم ربنا.

ألم تقرأوا قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (30). وكم اعتقدنا أنّ مكرنا الساذج أنفالاً لنا وليس أوبالاً علينا، مكرنا خديعة، بل ضلالاً ورذيلة، ومكره حكمة بل عدلٌ ورحمة.

إنّ ما يكون الآن يكون، وما سيكون لاحقاً سيكون، لا تَنصُب أمامي حسينياتٍ لتبكِ مستقبلك المأمول، فمستقبلي بمشيئة ربي مرهون، وإني بها لراض.

أمّا عن بيتي، فللبيتِ رب يحميه، وأمّا عن مالي فهو لله رب العالمين، وأمّا عن ولدي لله ما أعطى ولله ما أخذ، قال تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (155)، وبشّر الصابرين.

في ربيعنا أزهارٌ برسمٍ كالسُم، لا تُزَّهِر آراءً تلبّي مطامعك فقط ولا تستدل بالقرآن لتفسّر رأيك الجاثم المحصور ما بين أذنيك، فأنت لست الجوهرة في عقد هذا الكون، لا تفسر الأحداث بمنظورك القاصر خوفاً على نفسك فحسب، ولا تتناقل مكائد الآخر برسم الحدث النافذ والذي أنت فيه المستهدف فقط.

عجباً لقومٍ بات رجلُ الإعلامِ فيهم المفكرَ السياسي، والفنانةُ القديرةُ المفسرةَ للعقيدة، عجباً لهم يُفَصِّلون ثوباً من الإسلام على مقاسات عقولهم النحيلة، فيسدلونه على قَدَرِ طَمَعِهِم بالحرية عند أهل الشرق ويزخرفونه ليليق بمظهرهم عند أهل الغرب، يروجون إليه كما يُروج المدمن للخمر.

عجباً لقومٍ بات النفاقُ كأسهم، يُصَدِّرون أنفسهم دفاعاً عن ساقطةٍ تتسابق أعضائها سقوطاً نحو الرذيلة ظاهر أمرها وباطنه الفسوق، ويخرجون ألسنتهم سيوفاً على رجالٍ ظاهر أمرهم خيرٌ وأثرهم في المجتمع طَهور.

سحقاً لهم، وسحقاً لهم فقافلتكم عنوانها النفاق، وأصواتها العواء، وحركاتها اضطرابات أعضاءٍ واهتزازاتٌ في أجساد.

عجباً لقوم يبكون أموالهم المهددة بالنقص ويكفرون بحقوق إخوتهم المهدورة منذ فصل، عجباً لقوم تراهم ينشدون أنشودةً بالأمس كانت سخفاً تدعو للضحك والقهقهة، واليوم هي فخرٌ تُغنى في كل مجلسٍ تحوّله لتُرَّهة.

عجباً لقوم يقولون للكون إنّا نحن من قال عنّا محمد صلى الله عليه وسلم: (إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكَهم) رواه مسلم.

قد يكون الربيع ربيعاً وقد يكون الربيع خريفاً، وإنّي أراه بمشيئة ربي خيراً ربيعاً كان أم خريفاً.

"اللهم خذنا إليك منّا، وارزقنا الفناء عنّا، ولا تجعلنا مشغولين بأنفسنا محجوبين بحسننا، واكشف لنا عنا كل سر مكتوم يا حي يا قيوم"..

۞۞۞ ۞۞۞

مباركةٌ السواعد المقاتلة..

ميمونةٌ الأيدي البانية..

ملعونةٌ الأنفس القاتلة..

مقطوعةٌ الأطراف السالبة..

ماتت العقول القاصرة..

يا شام..

شاهت الوجوه الناظرة..

شاخت القلوب الباردة..

للهِ الله الحي القيوم.. فمشيئته وحدهُ النافذة..

للشـــــــــام ..

۞۞۞ ۞۞۞

ألم يسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحشر المرء مع من أحب فلينظر كل منا إلى نفسه من يحب"!

لا تقرأه لنفسك اليوم بل انظر لها، فمن أحَب ساقطاً، سَيُسقِطُه الله بجانبه،

ومن أحبَ قذراً سَيقبعُ يوماً بجانبه، ومن عَشِقَ ماجناً فسيسجنُ يوماً بمعيته، ومن أحب طاغيةً سيُحشر تحت مظلته، ومن شَجَّع طاغية فقد شَجَّع جَشَعه، فما الطاغية إلاّ إنسانٌ فيه من الحيوانية وما محبّهُ إلا حيوان فيه من الإنسانية.

فليحشر المُحِبُّ مع طاغيته، ولكنّه يوماً سيتمنى لو كان حيواناً بدل كونه إضافةً للعددية البشرية، وإنّي لأستذكرهم كلَهم بقوله تعالى في سورة الأنفال ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (22) بقولهم: أين الوسطية؟ إنّا نحن من نعيش الوسطية.

قام طاغيةٌ ذات يومٍ بين محبّيه فنبح قائلاً:

إنه.. أنا.. سوف..

إنه.. أنا.. سوف..

إنه.. أنا.. سوف..

فقاموا وصفقوا وانتهت المهزلة..

انه ابن الشيطان يلقي المحاضرة..

له من الفِكرِ عقل حمار..

ومن السلاح لسان أفعى..

ومن السكن جسد فيل..

عذراً أيها الحيوانات لولا إيمانكم به لما أدخلتكم المؤامرة..

وفي المكب صبت المحاضرة..

عجبي! ومن العرب من شربها بملء الإرادة!

للطغـــــــــــــــاة ..

تذكرت قوله تعالى في سورة الطارق ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ (17)، وكأنّهم بطريق كفرهم يسيرون، يهيمون لا يستفيقون، يظنون أن عقولهم تطرقُ

من الأبواب، ولكنها حقاً مُطرَقةٌ من الأبدان. أَمْهِلْهُمْ، فطريقهم هذه طويلة وكأنهم فيها يصعدون، حقاً هم فيها يهبطون، يصعدون قُدُماً نحو الشذوذ الفكـــري فهـــم اعتادوا قول الـــ "لا" وكذلك رفض الـــ "نَعَم"، فهم لم يروا إلاّ حقّهم في النِعَم، كالأنعام بل هم أضَل، يَرون بكفرهم أنهم نجومٌ فاقوا البشرية بل كلـــهم جنـــون ومجون أَسَفَّ البشرية، أمهلهم، هنيهةً هنيهة، سويعةً سويعة، رويداً رويدا.

"هناك من يناضلون من أجل التحرر من العبودية، وهناك من يطـــالبون بتحسين شروط العبودية"..

مصطفى محمود..

يقولون باشمئزازٍ بات في حينا مُخَيَّم!

وأقول لهم باستغباء: بل هو مُخَيِّم، مُخَيِّم على عروش كل الطغـــاة، علـــى جيوب كل الأثرياء، على نفوس كل الشرفاء، على قلوب كل الأحرار. إنه المُخَيِّم، رغم نقص الغذاء، رغم نقص الدواء ورغم شح الماء، ماؤك الجاري أيهـــا المُخَـــيِّم أنظف من بعض الدماء، لا تلقيه يا أختاه لعلنا نسقيهم إياه.

ذاك الفيلق المأجور..

قالوا له الله، الوطن، الملك..

فقال لهم الملك، الملك، الملك..

فشنّ الفيلقُ الحربَ على الإرهاب..

معه علوج الكفر مع بعض عجول الشام..

فقتل القاتلة.. "المُعَمِرَةَ" جامعة حلب..

وشنق المأذنة.. من المسجد في ريف دمشق..

من فرط جهله لا يعلم..

من فرط كُفر العلوج لا يعلم..
من فرط دهون العجول لا يعلم..
أن القاتلة الحلبية قاتلةٌ الجهل لا العرش..
أن آذان الدمشقية آذانٌ لله لا لطبول الحرب..

لشهداء جـــــــــــــــــــــــامعة حلب ..

ألا يعلمون أن هناك منّا المقاتل؟

المقاتل عندنا! امتلك الكثير هذا المقاتل، قلبَ أسد، جَسَدَ مقاوم، فِكرَ وَطـــن وروحَ شَهيد، إنه قاهر الأعداء على مر الزمن، إنه حسرة الأوطان في هذا الزمن.

مقاتلٌ ذو وجهٍ فارسٍ وقوي، يتكلم بصمت، يتجهم بفرح، وجهُه وجه مـــن لقي العدو عابساً وقابل الموت باسماً.

والشهيد؟ الشهيد منا من ارتضاه الله لجنانه من هؤلاء المقاتلين، وجهُه وجـــه بطلٍ حضر المعركة نهاراً ورأى طلائع النصر مساءً، إلاّ أنّه لم يبق لينشد مع رفاقـــه أناشيد الظَفر.

من فرط إيمانهم اجتباهم الله إليه، أسكنهم جنانه ورزقهم رضاه، أرى هؤلاء هم من قال فيهم تعالى في سورة الحديد **﴿... يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـــانِهِمْ...﴾** (12)، وكأنّ النور هنا طفل يُرَبى من قبل المؤمن، لكل مؤمنٍ طفلٌ هنـــا، ويســـعى الطفل من بين يديه ومن حوله، ولن يسمح له بالابتعاد فهو قدره المســـتقبلي وهـــو نوره القادم، ولكنه إذا ما ابتعد أمسكه بيمينه، فيمينه هنا قبضةٌ من حديد.

غريبٌ هنا هذا الطفل، فنموّه يتوقف بتوقف العمل، ويتسارع بتسارعه، وفي الآخرة سيسعى النور من حوله كما سعى طفله في الدنيا، ولن يفر من يمناه كما لم يفر منه في الدنيا فما زالت قبضته قبضةٌ من حديد.

فهم يدافعون عن الوطن، إنه الوطن؛ ما الوطن إلاّ هناك، حيث وُلِـــدَ الأب كما ولد الجدّ وأب الجدّ، حيث التقى الأب بالأم كما التقت الجدة بالجد، هنـــاك حيث التعارف والتقارب، حيث السعادة والمحبة، فالأقارب مجموعـــون يتكـــاثرون بالأعداد ويُعمرون بالعتاد، هناك.. هناك الوطن.

هناك الوطن فهو لنا المأكل وهو لنا المدفن، هو أرضنا عليها نلعب ولها نعمل، نحيا لها ونموت فيها، عنها ندافع ولها نكافح، الوطن أمٌ للجميع، هو جنتنا تحت أقدامنا ونارٌ على أعدائنا تحت أقدامهم، هو استثمارٌ لمستقبلنا ومصنعٌ لحاضرنا وفخرنا بماضينا ومنصةُ عبورنا لآخرتنا.

قامت تحصي أبناءها.. فأحصت بعضهم.. فحمدت الله..
قامت تتفقد زوجها.. قد فقدته.. فحمدت الله..
قامت تتوجه للقبلة.. لشكر الله..
فتلقفتها صليه.. لتقعدها عن الصلاة لله..
فاستشهدت.. فحمدنا وأبناءها الله..
هذه يوميات المرأة الشامية.. سبحان الله..
للشـــــــــــــام..

إلى غزة..
غرسةُ العزة في جسد الوطن..
غزة! سيف الوطن المسلول، امتلأ جسدها جراح ودموعها باتت تنزفُ دماء، غَرَسَت ثقافة الصمود وأنتجت منصةً لإطلاق التضحيات. ولكنها غرسةٌ لن تموت، فهي من أطيب ما يكون، نكهاتها العزة وثمارها الشهداء، بحارها الدم وغضبها البركان.
وإن حان موسم الحصاد أفاضت للوطن كرامةً تكفيهم موسماً جديداً لاستكمال الحياة، حصادها وجبة موتٍ بنكهة الشهداء، حصادها نقصانٌ بالعدد في الأرض وزيادة بالأعداد في الجنات.
هي غرسة، إلاّ أنّ بيديها كل صور الإقتلاع، فتقتلع من جسدها الفاسد، ومنّا المتواطئ، ومنهم المعتدي الغاشم. إلاّ أنها لا تُقتلع، فجذورها بقلوب الملايين،

ودروسها حفظت بالسنين، ودمائها أسقت كل العرب والمسلمين، أنت يا غـــزة غرسة العزة.

غزة.. إنهم قومٌ يتحدّون، عجباً لنا! إنّا لا نتّحد وإن اتحدنا نتّحـــد بقوافـــلَ للبيت الذي ببكة طمعاً بالجنة، وهم متّحدون بقوافل متجهة بوجهةٍ واحدةٍ للجنة، قوافلنا مرةٌ في العمر إن صارت لنا الظروف، وقوافلهم مرة كل حين كلما تجهزت لها الجيوش.

غزة.. إنهم قومٌ يستشهدون، عجباً لقومٍ أجدادهم إثنـــان؛ ميـــتٌ وشـــهيد، وآباؤهم ثلاثة؛ ميتٌ وحيٌ وشهيد، وأبناؤهم واحد؛ مشروع شهيد، فمنهم مـــن قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بُدِّلوا تبديلا.

غزة تنتصر.. أمة ترتقب.. مَحطُّ النظر ومعراج الشهادة، انتصري، انتصـــري غزة انتصري، انتصري نصراً كله حماس، نصراً وليدَ الجهاد، نصراً فاتحاً لأبـــواب الجنان، ولغطاءِ الكرامة ولتراب الأوطان. أمطريهم حتى وإن كان مطرك علـــيهم شوكاً؛ فالشوكُ عندهم بألم لا يُحتمل، وأمطرينا عزةً فالعزةُ عنا قيمةٌ تندثر.

غزة.. إنهم قومٌ ينتصرون، عجباً لقومٍ حصارهم من ثلاثة؛ من عـــدوٍ وبحـــر وأخٍ، ولحصارهم أمطارٌ ثلاثة؛ مطرٌ من السماء بماء يسيل للبحر، ومطرٌ مـــن الأخ يسقيهم العطف أو الغدر، ومطرٌ من العدو يُمطرهم أبشع صور الموت، فترتشـــق بدمائهم وجوهَنا، يغسلوها أن أفيقوا إنّا لننتصر، لا نريد منكم عونـــاً أو مـــدداً، شاركونا النصر أو أنـــزلونا القبر.

فكيف لا ينتصرون؟ كيف لا ينتصرون؟ فدروعهم جسدٌ يســـنده الجســـد، وعزيمتهم روحٌ تلتف حول الروح، هم عقيدة العزة في جسد المقاومة، فبَشِّر عباد.. فبَشِّر.. إنهم لقومٌ ينتصرون.

غزة، كيف هي تنتصرُ النصرَ المؤزر؟

خاب ظني. سمعت نعيقاً أوقف لي خيالي عن مســـيره، فقطعـــت احتفـــالي وأعلنت أنها لم تنتصر، فكيف هي تنتصر؟ إن كان أطفالها طيوراً في الجنة تُحَلِّـــق، وبعض عربانها غرباناً بالشؤم تنعق، إن كان نيشان استشهادها على صدور الأهـــل تَعَلَّق، وبعض عربانها لأحذية الذل تَلعَق! كيف تنتصر؟ إن كان سلاحها الخفيف ذا أثر مدوٍّ، وسلاحُ عربانها الثقيل ذا أثرٍ مُرقِّص!

شهيدُها شهيدُ معركة، وبعضُ شهيد عربانها شهيدُ مقامرة، كيف تنتصـــر؟ الهاتفُ عندها لمخابرة، والهاتف عندهم لمغازلة، كل أموالها لغذاء وسلاح، وَجُـــلّ أموالهم لفسادٍ ونساء؟ غزة.. لم تنتصري بعد، بهؤلاء لن تنتصري أبدا، إفتكِ منهم وتطهّري منتصرين، لن يضروكِ إلاّ أذى.. وما زادوكِ إلاخَبَالاً..

وعذراً ففينا سَمَّاعون لهم..

الله أكبر..

ها هم فقراء القوةِ ومُعدمو الجبروتِ يقصفون رموز الطغيان بقنابلهم اللفظية الروحانية، قوامها لفظةٌ هي لنا العَظَمَة وموصوفةٌ بصفةٍ هي عندنا المطلَقة، لعلـــها تردّ قذائف إجرام الشياطين البشرية، لعلها تســـتدعي أرواح شـــهداء الضـــمائر الإنسانية النظرية، لعلها تستجدي مخازن الصبر الكوني لتصبّ فوق دمائهم، لعلـــها تستنجد رياح الزمن البائس ليخبر عن أحوالهم، لعلها تثير التراب الأرضي لينتفض ويتلقف ما بقي من أجسادهم..

ليت شعري أدري ما لهم غيرها؟

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

للشـــــــــــــام..

اقتطاف الإهداء..

يقول الكاتب صنع الله ابراهيم في كتابه "الواحات":

"السجن هو جامعتي أمّا أبـــي فهو مدرستي"..

وأنا أقول:

الرافعي هو جامعتي أمّا أبـــي فهو مدرستي..

إلى الرافعي..

أقول لك كلاماً بروابطي وأقلامك وأقلام أبناء العرب وقلمي..

نعم.. استبدلتك بالسجن، فقد أسرتني عَظَمَةُ ما كَتَبَت، ألهمـــتني الصَـــبر ثم الطُموح، أسقيتني من حكمتك وأطعمتني من أدبك، فسّرت لي العلاقـــات علـــى الورق، ودعوتني بكرمٍ لتنفيذها على أرض الواقع بلا قلق، الصداقة، الوطن، الأهل، الحب..

"ليكن غرضك من القراءة اكتساب قريحةٍ مستقلّةٍ، وفكرٍ واسع، وملكة تقوى على الإبتكار، فكل كتابٍ يرمي إلى إحدى هذه الثلاث فاقرأه"..

الرافعي..

أخال القصة بدأت بروعة هذه الجملة، بل بروعة هذا المنهج، والذي أسمّيه "منهج الكِتاب"، قد رسمهُ عقلك على الورق، ونقلتهُ رياح الزمن لعينيّ المتعطّشين، فالتهمه قلبي التهام المفجوع، وابتلعته روحي ابتلاع الموجوع، فما كان لأسنان الزمان عندي بطاقةٍ عليه.

ومنه وجدته لنفسي منهجاً للكتابة، فلعلّي أحاول أن يكون غرضي من الكتابة عرضُ قريحة مستقلّة، أو فكرٍ واسعٍ، أو ملكة تقوى على الإبتكار، فعلى كل الكُتّاب أن يرموا إلى إحدى هذه الثلاث ليكتبوا.

"من نَقب وبحث ثم كتب فهو ربع كاتب، ومن رأى ووصف فهو نصف كاتب، ومن شعر وأبلغ الناس شعوره فهو الكاتب كله"..

جبران خليل جبران ..

وأنت أبلغت وشعرت من بعد ما رأيت، ووصف من بعد ما نقبت وبحثت، كاتب، كل الكاتب.

"يا طالب العلم أنت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك إلى خُلُق غير خلقك، وجوّ غير جوّك، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك، ولكنك في حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم، وهمة عالية كهممهم، وأمل أوسع من رقعة الأرض وأرحب من صدر الحليم، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة، فنعم الخلق هي إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون"..

المنفلوطي..

كان وما زال كل ما أتمناه نفساً عالية كنفسك، وهمّةً عالية كهمتك، وأمـــلاً يفوق ما عندي من خيال، كم همس بـــي حاسد وكم حاول إقعادي مقعد.. وما أكثرهم المُقعَدون!

المقعدون في أمتنا ثلاث؛ مُقعد الجَسَد ومُقعد النَفس ومُقعـــد الفكـــر، ومـــا اجتمع من ثلاثتهما.

في مُقعد الجسدِ حِكمةٌ ربانية، فإن صَبر المبتلى عليها أُجر، وإن تعايش معهـــا أُبهر فأَبهر، وإن يأس منها أفَل من سماء الحياة كنجمةٍ تكالبت عليها ســـهام القـــدر فأردتها شهباً تحترق نـــزولاً وتتلاشى قبل الوصول.

ومقعد النفس من انـــزوى، بل وعاش بين كلماتٍ ثلاثٍ وارتضى، لمـــاذا، كيف وغداً، يعيش على هامش الحياة لا يقرأه إلا المتفحص، فإن أهمله متفحصـــه هذا مات من شدة الإهمال.

وأمّا مُقعَد الفكر ذو إعاقة تفوق كل الإعاقات، فهو يمحو ما خطّـــه الخـــيرُ، ويشوّه الحقَ بفكره الفاسد، يخال نفسه الباني هذا الهادم.

فمضيت على وجهي وتركتهم هناك، وما زالوا في غيهم يعمهون.

"الحياة مادة يا صديقي فإذا أنا لم أقل كلمة وأسمع ردها أو أخط ســـطراً وأقرأ مثله أو أرسل نظرة وأتلقى جوابها، فإنّ الفكر الذي يسعدني في كل شيء هو نفسه الذي يعذبني حينئذ بأحب الناس إلي، يعذبني بك حين لا أراك"..

الرافعي..

تخيلتك تخاطبني حينما قلتها فتمنيت أن أقول لك كلمةً كما قلت، وأخط لك سطراً كما خَطَطْتَ، وأُقرئك مثله كما أقرأت، وأرسل لك جواباً كما أرســـلت، فإن فكرك الذي أسعدني شجّعني وألهمني والتهمني شوقاً إليك.

"عندما يحبّك أحد، يودّ لو اقتسم معك كلّ ما هو له، بل لو منحك كلّ ما يملك وغدا ضيفاً عليك لاعتقاده أنّه يقيم فيك، ولا عقارات لـــه في الدنيا سواك، البعض يفوق كرمه جيبه، لأنّ يده تسابق قلبـــه، وأنّـــه لم يقصد بسخائه رشوة قلبك بل إسعادك لفرط سعادته بك"..

أحلام مستغانمي..

أحبَبتَ الجميع واقتسمت معهم حكمتك، بل ومنحتهم كل ما عندك علـــى هيئة حبرٍ وورق، وغدوت ضيفاً عزيزاً على أدبنا وعقولنا وأقلامنا، كان كرمُـــك يفوق حبرك، لأن قلمك سبق قلبك، و لم تقصد إبهار أنظارنا بل إرشـــادنا لفـــرط حبّك للخير إلينا.

وإنّ في منهجك قوةً في الحقِ وصرامةً بالفكر، أكسبه إدماناً أوصلني للمزيـــد من البحث في غذائك الورقي، فوجدتك تقول فيه بلسان المحارب:

ربما عابوا السمو الأدبـــي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك..
وبأنّه مخالف، ولكنّ الحق كذلك..
وبأنّه محير، ولكنّ الحسن كذلك..
وبأنّه كثير التكاليف، ولكنّ الحرية كذلك..

الرافعي..

وأنت كذلك، أنت قليلٌ كالخير، مخالفٌ كالحق، محيّـــرٌ كالحســـن، كـــثير التكاليف كالحرية، أنت كذلك، أنت كذلك..

"لم تكن لهداياه مناسبة. المناسبة كانت الامتنان اليوميّ للحياة الـــتي وضعتك في طريقه، لكأنّه يريد تطويقك، لكأنّه يريد أن يحمل كـــلّ شيء عنك، كلّ هم يشغلك، لفرط تدفّقه سيفيض على كلّ شـــيء حولك.

أخطر ما في هذا الصديق أنّه سيصبح عندك مرجعا للصداقة، لا بمقياس جيبه بل بمقياس قلبه، فالهديّة بقدر ما يبذل فيها المرء من نفسه، لا بقدر ما ينفق فيها من ماله، وستتساءل إن كان الذين مرّوا ولم يتركوا خلفهم شيئا نلامسه يشهد بمرورهم ببيتك وبخزانة ثيابك وبمواسم أعيادك قد أحبّوك حقا"..

أحلام مستغانمي..

لم تكن لكتبك مناسبة، المناسبة كانت الإمتنان اليومي للحياة التي وجدتك أنت فيها، لكأنك أردت تطويقنا، لكأنّك تريد أن تحمل كلّ شيء عنّا، كلّ هم يشغل بالنا، لفرط تدفّقك أفضتّ على كلّ شيء حولنا.

أخطر ما فيك أيها الرافعي أنّك أصبحت عندنا مرجعاً للأدب، لا بمقياس عدد كتبك بل بمقياس حكمتك وذوقك وأدبك وكمال نصوصك، فالأدب بقدر ما يبذل فيه المرء من نفسه، لا بقدر ما ينفق عليه من أوراقه، وسنتساءل إن كان الذين مرّوا و لم يتركوا خلفهم كتاباً نلامسه يشهد بمرورهم بقلوبنا وبمكتبة كتبنا، قد كتبوا حقا..

"ربّ عمل صغير تعظّمة النية وربّ عمل كبير تصغّره النية"..

ابن المبارك..

"إنما الأعمال بالنيات"، لطالما قرأت تفسير هذا الحديث العظيم لمحمد صلى الله عليه وسلم، إلاّ أنّي استشعرت بنفسي أنّ العمل يتم بعقد النية، فعقد النية هو جُلّ العمل، ومن ثم يُطلِق الله لنا الجوارح لإتمامها.

إني الآن موقن أن الكاتب يكتب وراء قلمه لا يكتب به، وأن الرسام يرسم وراء ريشته لا يرسم بها، فالقلم والريشة كما الشمس والقمر كلاهما يجريان بأمر الله. وهذا كتابي وإن صَغُرَ أتوق أن تُعَظِّمه النية ولو حصراً بعينيّ تحت جفنيّ.

إذا مـــــا طمحـــــت إلى غايـــــة

لبســـــت المـــــنى وخلعـــــت الحـــــذر

أبو القاسم الشابـــي..

مما فكان لغايتك من علو أسقتك المنى وقتلت منكَ الحذر، فقلت فينا "الذوق الأدبـــي في شئ إنّما هو عن فهمه، وإنّ الحكم على شئ إنّما هو عن أثر الـــذوق فيه، والنقد إنّما هو الذوق والفهم جميعا"..

"الشخص الواثق بنفسه له ضحكة تختلف عن الآخرين"..

إبراهيم الفقي..

كذلك أنت، لك قلم تختلف به عن الآخرين.

"لماذا لا نخرج من همومنا الذاتية لنحمل هموم الوطن الأكبر ثم نتخطـــى الوطن إلى الإنسانية الكبرى"..

مصطفى محمود..

تماماً كما صنعت، خرجت من هموم جسدك وما يحيطه فتلقفت هموم الوطن عن كاهل الأمة، ومنها وصلت للإنسانية الكبرى، لا أدري كيـــف علـــى هـــذا استطعت؟ أسرت جسدك بقوة روحك العظيمة، تماماً كما نأسر نحـــن أرواحنـــا بأجسادنا الضعيفة.

أحبَبتُكَ ليس كالبعض بل كبعضٍ..

"نحبهم، ويبقى فقط أن يحبوننا، مثلما نحبهم"..

جبران خليل جبران ..

فكتبت الكتاب مقروناً بمحبة للجميع ولَك، محبةٍ كتلك التي قمت أنت بهـــا بأن..

"تحوك الرداء بخيوط مسحوبة من نسيج قلبك مفكراً أن حبيبك سيرتدي ذلك الرداء، وأن تبني البيت بحجارة مقطوعـــة مـــن مقلـــع حنانـــك وإخلاصك مفكراً أن حبيبك سيقطن في ذلك البيت.."

جبران خليل جبران ..

وفرغت من الكتاب وها أنا أفارقه إلا أن فراقي مختلف فليس..

"ما أفارقه بالثوب الذي أنـــزعه عني اليوم ثم ارتديه غدا.. بل هو بشرة أمزقها بيدي"..

جبران خليل جبران ..

رسالة إلى الله (4/4)

(الأسبوع الرابع)

في سبتِ أسبوعي الرابع، كنا في رحلةٍ طويلةٍ للبحر، نَظَرتُ جَمالـــه وكُبْـــرَ حَجمه، ألقت إليّ أمواجه بكلماتٍ فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنه بحر، الجمال فيه لا حصر، إن أبحر مني فعلُ ســـوءٍ اهتـــزَّ وأَغرق، وإن كان فعلَ برٍ أمّن عليه كأنّه على البر قد أَبحر، أحبّك ربـــي..

وفي الأحد وإذا بمسيرات في دول أجنبية تؤيد الحجاب نظراً لعمل الحكومات على حظره، فأوحت لي مظاهراتهم أن أكتب فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه حجاب، يحجب مني كل نظرةٍ مشبوهه، ويحجب عني كل فتنةٍ مسعورة، حبّك يا إلهي حجاب سترت به نفسي، أحطت به نفســـي، عقلـــي وقلبـــي وبه أحببني يا ربـــي، أحبّك ربـــي..

في الإثنين كنا نعد لحفلٍ صغيرٍ إيذاناً ببدء نشاطٍ جديدٍ يجمعنا، وإذا بـــي وأنا وموسى نرتب المقاعد خطر ببالي أن أكتب فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه مَقعَد، وكأنّي فيه أنا مُقعَد، فإن رَغِبَت نفسي بمنكرٍ حـــال بيننا، وإن شَقَّ عليَّ معروفٌ جذبَ بيننا، حبّك يا إلهي مَقعدٌ أجلست نفسي عليه طوعَاً، وأنتظر عليه مجلساً في الفردوس طمعاً، أحبّك ربـــي..

وفي الثلاثاء وإذا بـــي أُضيع المفتاح فبحثت وموسى عنه، وعنـــدما وجـــده موسى ألقاه لي فتلقفته وتلقفت معهُ كلماتٍ فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه مفتاح به أفتح من الجنة كل باب، فإن استعصـــى علـــى قلبـــي خيرٌ فَتَحَ من كل الأبواب، وإن همّ بنفسي سوءٌ استعصم ونفسي لها نفـــى أن يُسَلِّم، وغلّق عليها من كل باب، أحبّك ربـــي..

في الأربعاء عثرت على مصباحٍ ملقى على الطريق فمررت عنه وخطر لي أن أكتب فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه مصباح يضيء دربـــي نحو الفلاح، كلما هممت بِشَـــرٍ فيّ صاح، فيشتد ضوؤه وينبّهني لطريق الخلاص، أحبّك ربـــي..

وفي الخميس استقبلت صديقاً لم أره منذ زمن، كان استقباله لي بحضنٍ اعتصر فيه من نفسه كل ما فيها من عاطفة، فألهمني أن أكتب فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه حُضن، يُحصّنني من ما يهاجم مـــن الشـــهوات المحرمـــة، يساعدني ببناء الأفكار الحسنةِ والمُحَسَّنة، أحبّك ربـــي..

۞۞۞ ۞۞۞

في الجمعة وفي أثناء خطبتها خطب الإمام ممسكاً بعصاه الخشبية يتوكأ بها تارةً ويشير بها تارةً أخرى فخطرت ببالي فكتبت:

أحبّك ربـــي..

أحبّك حباً وكأنّه عصا "كمثلها لموسى"، أتوكأ عليها لفعل الخير إن كنـــت متثاقلاً، وأهش بها على فعل السوء مني إن كنت مبادراً. وإنّي لها لســـت بتـــاركٍ، وإني بها للجنة بساعٍ، أحبّك ربـــي..

النهاية..

"أنا أحسن الكلام مع السماء وأنت تحسن الفهم عن السماء، فحـــاجتي إليك هي أن تتكلم في روحي وحاجتك إليّ هي أن أتكلم في قلبك"..

الرافعي..

لا أجد من بعد حديثنا المطول هذا إلا أني أجد نفسي تقول لكم:

"تحدثت إليك طويلاً، وعَرَضتُ عليك أموراً كثيرة تتعلق بنفســـك، ولم أقف لأسأل من أنت؟ أمّا وقد انتهيت من هذا الحديث فأحســـب أني في الواقع كنت أتحدث إلى نفسي"..

محمد كامل حسين..

يقولون تمّت...
وأقول قد لم تتمّ...

من يدري؟!
تمّت أم ستتّم؟!

تدقيق لغوي: إيمان إدريس – emanidrees@yahoo.com

تصميم الغلاف: محمد زياد سقا الله – b1b2@ymail.com

للتواصل مع المؤلف: إبراهيم إدريس – idrisinm@yahoo.com

تابعونا على صفحة الكتاب على الفيس بوك بعنوانها (مقتطفات من الورد)